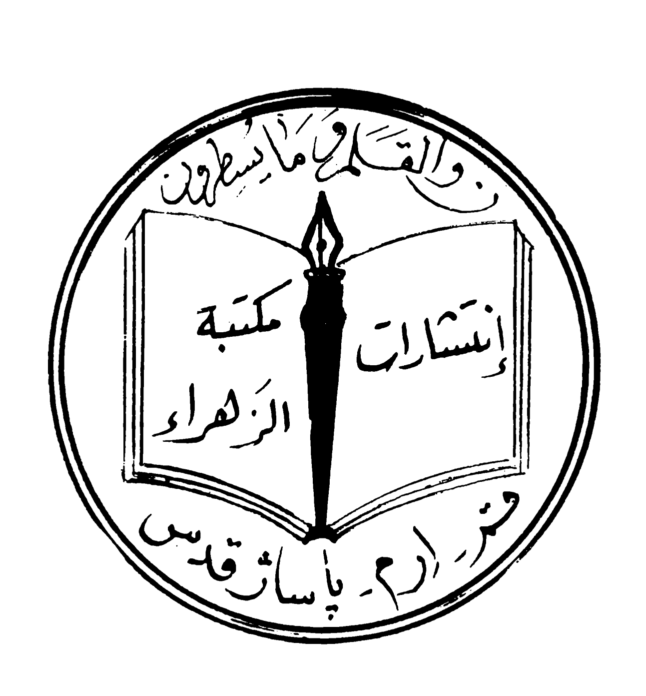


للإمام
الشيخ محمد رضا المظفر
المتوفى ١٣٨٣ هـ.ق

انتشارات مكتبة الزهراء
قم - إرم - پاساژ قدس


ن والقلم وما يسطرون
انتشارات
مكتبة
الزهراء
قم ـ ارم ـ پاساژ قدس



السقيفة

بقلم المغفور له :

الإمام المجاهد الشيخ محمد رضا المظفر

لترجمة المؤلف راجع "مقدمة المنطق"







بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

- ١ -

موضوع هذا البحث قديم جداً وقد سبق أن عالجته عشرات الأقلام في مختلف العصور وكان مسرحاً لكثير من عواطف الكتاب تلاعبت فيه بأساليبها الخطابية التي لا يراد بها غير تركيز عقيدة أصحابها من طريق اللف والدوران ولم يسلم من آفاتها إلا القليل .

وعلى كثرة من كتب فيه في عصرنا الحاضر لم أجد - في الغالب - من أخضعه للتطور فغير في مناهج البحث ، وجدد في طريقة الاستنتاج وبدل في أساليب العرض إلى ما يلائم أذواق العصر فكانت حاجته كبيرة إلى من يعالجه معالجة موضوعية مجردة من ناحية ، ويأخذ بيده إلى حيث يرجى له من التطور الذي تقتضيه مناهجنا العلمية الحديثة من ناحية اخرى .

واشتدت الحاجة قبل عدة من السنين حين كثر البحث في

هذا الموضوع كثرة تلفت إليها الأنظار حين إزدحمت عليه العواطف فأساءت استغلاله وتركته عرضة لاحداث مشاكل اجتماعية يذكر الكثير من القراء مدى مفعولها في هذه الأوساط وكان لا بد لهذا الطغيان العاطفي من إحداث رد فعل في نفوس بعض الباحثين المجردين ممن تهمهم رسالتهم العلمية قبل كل شيء .

وكان سماحة شيخنا العلامة المظفر ـ مؤلف هذا الكتاب ـ في طليعة اولئك الباحثين كما كان كتابه هذا نتيجة لرد الفعل الذي أحدثه ذلك الطغيان .

- ٢ -

أما الكتاب فقد وفق في عدة نواحي وفق في نظرته لبحثه نظرة موضوعية خالصة لا يلمس فيها للمؤلف أية عاطفة ولا يدرك له فيها أي تحيز وإذا قدر له ان ينتهي في بحثه إلى حيث تنتهي عقيدته المذهبية فليس ذلك إلا لأن منهجه العميق إنتهى به إلى هذه النهاية ، ووفق في منهجه العلمي الدقيق القائم على التماس ملابسات شتى ألقت كثيراً من الأضواء على هذه الحادثة التأريخية بالإضافة إلى ما عرض من النصوص الواردة فيها خاصة ناقداً لها جميعاً نقداً دلالياً دقيقاً مجلياً مفاهيمها على حسب ما

يقتضيه الفن معتمداً في ذلك أصح الطرق الموصلة إليها مختاراً من الأحاديث ما اتفق عليه الثقات من أئمة الحديث لدى الطائفتين المسلمتين ، ووفق أخيراً في اسلوبه في العرض وتنظيمه لبحثه تنظيماً فنياً ينتهي بك إلى نتائجه من أقرب الطرق وأيسرها ببيان رائع جذاب .

والحق أن الكتاب يعتبر مرحلة تطورية هامة أوصل بها المؤلف هذا البحث إلى عصره الذي يعيش فيه وهو من الكتب القلائل في هذا الموضوع التي أدت وظيفتها كاملة .

ولعل القارىء الكريم يود أن يعرف مدى أثر هذا الكتاب في نفوس الباحثين والمعنيين بهده الشؤون وكيف استقبلوا بحوثه الحرة وإلى أي مدى كان اقبالهم عليه أو إعراضهم عنه ، والحقيقة أن الناس لم يتفقوا عليه بحال فقد انقسموا حوله طائفتين رضيت عنه أولاهما وحمدت لمؤلفه أسلوبه المجرد واطرته إطراء عاطراً وخير من يمثلها من الأعلام سيد هذا الفن في عصرنا الحاضر سماحة آية الله العلامة الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين مؤلف كتاب (المراجعات) وغيره مما يعتبر فتحاً في البحوث الكلامية التي خضعت للمنهج العلمي في عصرنا الحاضر فقد كتب حفظه الله إلى مؤلفه كتاباً يعرب فيه عن رأيه فيه وفي مؤسسته التي يرأسها ،

نذكره هنا بنصه إعتزازاً بثقته بالكتاب وإكباراً لرأيه بالمؤسسة التي إحتضنها المؤلف واعتبر بحق رائدها الأول وحافظ سيرها وتوازنها منذ تأسيسها حتى اليوم ، وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على أمير المؤمنين وسيد الوصيين ورحمة الله وبركاته .

أيد الله شيخنا العلامة البحاثة المجاهد الشيخ محمد رضا المظفر واعز أقطاب مجمعه الثقافي الديني لمنتدى النشر وسلام الله عليه وعليهم وحيى الله منهم أرواحاً طيبة طاهرة تصدع بالحق في منتداه الكريم .

وبعد: فقد أخذت هديتكم القيمة كتاب « السقيفة » بعين الشكر ثم استشففت فيه أثر الجهد النبيل الجدير بالمؤسسة العلمية الطالعة بما انتظمه من سلامة البحث وسمو التفكير وحسن الأداء على وجه سد فراغاً في المطبعة النجفية .

وكنا فيمن عقد الأمل « بالمنتدى » يوم تأسيسه وناط به الرجاء أن يكون له الأثر المحمود في توجيه الناشئة الدينية وبناء الجيل الطالع وتجديد ميراث النجف في بعث يلائم التطور الحاضر ويماشيه في مداه الطويل ووسائله المنوعة وذلك أني رأيت من

قديم لأن الهدى لا ينتشر إلا من حيث ينتشر الضلال وعلى هذا رجوت أن تكون المطبعة وتنويع المنهج الدراسي وإحياء العلوم الإسلامية المذخورة كل هذا من رسالة منتداكم المرجو .

ولم تخلفوا الظن ولله الحمد فإن الذي يبلغنا من أخباركم السارة وآثاركم النافعة يثلج الصدر وينعش الأمل وليس شيء كمآثركم الأخير هذا السفر الجليل داعياً إلى الاطمئنان والاستبشار بمستقبل نير يضع النجف الأشرف في مكانه الأسمى ومحله الأرفع والسلام عليكم ورحمة الله .

عبد الحسين شرف الدين

ولهذا الكتاب الكريم نظائر من الكتب من أعلام الباحثين الذين يألفون هذا النمط من التفكير تركنا ذكرها الآن إكتفاء بهذه الرسالة الجليلة .

أما الطائفة الاخرى التي لم يبد انها ارتاحت لهذا الاسلوب من البحث واعتادت على مواجهة مثله بأعصاب متوترة توجهها العاطفة حسبما تريد فخير من يمثلها مؤلف كتاب « رد على السقيفة » وهذا الرد ـ إذا استثنينا منه ما حشد فيه مؤلفه من ألفاظ السباب الخارجة على آداب البحث والتي يفزع إليها

العاطفيون عادة إذا أعوزتهم الحجة ـ لم يخلص لنا منه إلا القليل .
وهذا القليل وضع فيه حضرته للنقد والجدل مقياساً لا نتفق عليه معه بوجه ، وما ادري إلى أي حد يتفق معه الآخرون من باحثي قومه عليه فهو يرى ـ كما يبدو من مجموع الكتاب ـ ان المقياس لديه في كل شيء يتعلق بالموضوع هو ميوله الخاصة ، فالأحاديث التي لا تتفق معها أحاديث موضوعة وإن أجمع ثقات المحدثين من الطرفين على تصحيح أسانيدها مع ان بعضها متواتر لا يشك بصدوره عن النبي ﷺ بحال ، والأحاديث التي توافق هواه صحيحة وان حكم أرباب الجرح والتعديل من قومه بوضعها وشخصوا الواضع وعينوه ، ومداليل الأحاديث يجب أن تصرف عن ظواهرها إذا لم تؤيده وان خرج الكلام على الاصول الموضوعة في هذا الفن إلى آخر ما هنالك مما لا يقتضي التعرض له في صدر هذا الكتاب على أن هذا ليس غريباً على حضرته ما دام يواجه التأريخ بهذه الذهنية ، ولكن الغريب من مجلة مصرية تنطق بلسان هيئة محترمة قرأ محرروها الرد ولم يقرؤا الأصل فاستعاروا منه اسلوبه في الشتم ونحوا على الكتاب وصاحبه باللوم والتقريع مع ان « التبين » كان أليق بهم وبمكانتهم العلمية لئلا يصيبوا قوماً بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين .

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد على سوابغ آلائه ، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه النجباء

- ١ -

تأثير العقيدة على المؤرخ

من أشق الفروض على المؤرخ ان ينفض عن ردائه غبار التعصب لنزعاته الشخصية من دينية أو قومية أو وطنية ونحوها ، بل لعله من شبه المستحيل أن ينزع من قلمه لحاء عقائده وأهوائه ، فإن النفس تلهم عقل صاحبها التصديق بميولها وعواطفها ، وكثيراً ما تقف سداً منيعاً بين بصيص عقله والحقيقة ، وإن حاول أن يخرج من نفسيته التي ورثها ونشأ عليها ، ويتحلل فكره من

أسرها وسجنها ليحلق في جو الحق الطليق ، وإذا رأيت طائراً أسعده الحظ فتحرر من سجنه فألحقه إذا كنت حـــراً مثله ، فستجد إن جناحه مثقل بغبار السجن ، وأرجله لا تزال متأثرة بالقيود ، فيختلج في رفيفه ويتثاقل في طيرانه ، وقد يهـــوى احياناً إلى الهوة غير مختار .

هذا من حاول أن يتحرر من شخصيته الاعتقادية وتأثيرهـــا عليه .

أما من يؤرخ لأجل غذاء عقيدته ، أو يؤلف لغرض إرضاء نفسه أو محيطه ، فأقرأه الف سلام وسلاماً ! وأرجو من الله تعالى أن يوفقني لئلا اكونه .

وأظنني غير مبالغ إذا قلت : إن المؤرخـــين من السلف على الأكثر وأقول « على الأكثر » إذا أردت الاحتياط في القول كانوا من النوع الثاني . بل حتى المؤرخين في عصرنا لا يخرجون عن هذه الطريقة على الغالب ، وإن تظاهروا بحرية الرأي وانصاف الواقع والحق ، فتظهر جلياً « بالرغم على المؤرخ » نزعتـــه على قلمه ويتماشى تأريخه وتأليفه مع الروح التي يحملها ، فيختار من الأحاديث ما لا يفسد عليه رأيه ، ولا يصدق إلا بما يجري على هواه . فكم يكون الرجل عنده كذاباً وضاعاً ، لأنه نقل مالا

يتفق ومبادءه ،وكم يكون ثقة صدوقاً لأنه لم يرو إلا أحاديث تؤيد طريقته .

- ٢ -

إضطراب التأريخ

وهناك بلاء مني به التاريخ الإسلامي خاصة حماه بالغموض والشك عن الباحثين المنصفين . ذلك كثرة ما لفقه الوضاعون والدساسون في القرون الاولى من الهجرة ، لا سيما القرن الأول ، فأشاحوا بوجه الحقائق وقلبوها رأساً لعقب .

وليس أدل على ذلك من التناقض والاضطراب الموجود في أكثر أحاديث الوقائع التأريخية ، فضلاً عن الأحكام الشرعية ، ما عدا الاختلاف في خصوصيات الحوادث والأحكام مما يذهب بالاطمئنان إلى كل حديث .ولا أظن ناظراً في التأريخ لايصطدم بهذه الحقيقة المرة . ولا يمكن أن يحمل كل ذلك على الغلط في النقل والغفلة في الرواية .

ولنعتبر بأهم حادثة يجب اتقانها عادة ، مثل يوم وفاة الرسول ﷺ فإنك تعلم كيف وقع الاختلاف في تعيين اليوم من الشهر ،

بل في تعيين الشهر . وهذا أمر شهده جميع المسلمين وهزم هزماً عنيفاً فلا يمكن ان يفرض فيه النسيان أو الغفلة . فما ننتظر بعد هذا من تأريخ حروبه وأحواله ، ومن نقل أقواله وأحاديثه لاسيما فيما يتعلق بالشئون التي اختلف فيها المسلمون ، فتحاربوا عليها ، أو تشاتموا لأجلها فكفر بعضهم بعضاً .

ولعل أسباب الوضع ثلاثة أشياء :

(١) حب تأييد النزعات والعقائد ، فيعري على الكذب ، ولعل ذلك يخدعه بأن الرأي الذي يعتقده حقاً يسوغ له الوضع ما دام الموضوع في اعتقاده هو الواقع أو شبيه به .

(٢) حب الظهور ، فقد كان للمحدث في العصور الأولى المنزلة العظيمة بين العامة ، وبالحديث كان التفاخر والتقدم ، ويمتاز من كان عنده من الحديث ما ليس عند الناس ، فأغرى ذلك ضعفاء العقول وعبدة الجاه ، فاحتالوا للحديث من كل سبيل ، حتى من طريق الوضع والتزوير .

(٣) ما بذله الأمويون وأشياعهم من كل غال ورخيص للمحدثين على وضع ما يؤيد دستهم وملكهم وأهواءهم ، ولا سيما فيما يحط من كرامة آل البيت ، وفيما يرفع من شأن أعدائهم وخصومهم ، فكثرت القالة يومئذ واتسع الخرق ، حتى طعن

لاسلام طعنة نجلاء لم يبرأ منها إلى يوم الناس هذا .

- ٣ -

خطة الكتاب

فلذا وذاك أصبحت ، وأنا كثير الشك والتحفظ في جملة مما ينقله المؤرخون والمحدثون ، وأقف حائراً عند كل حديث يتعلق بالخلافات المذهبية خاصة .

فكيف بي ، وأنا اقحمت نفسي في البحث عن أول حادث في الاسلام نشب فيه الخلاف بعد الرسول وانشق فيه المسلمون طائفتين ذلك حادث (السقيفة) ! .

كيف بي ، وقد وقفت بين نفس تطالبني بأن ارضيها في عقيدتها ما بين تأريخ هذا حاله قد أحيط بالشكوك والشبهات ، وقد كتب في الحادثة الطرفان ، فشرقت طائفة وغربت اخرى .

ولكني أريد الآن أن اتحرر من عقيدتي واتمرد على نفسي ، فأقف حراً على نشز من الإنصاف والتروي ، وأمسح عن عيني غبار التعصب لأرى تلك الحقيقة الواحدة وهي واحدة في كل شيء - فهل أراني استطيع علاج مـــا بي ؟ هذا ما اشكه في

نفسي وواجب علي ألا أثق بها ، فما السبيل إذن ؟ ثم ماذا سأصنع في علاج الناحية الاخرى : ناحية التأريخ المظلم ؟ .

ـ إنها لمزلة للقدم ، ولها ما بعدها ؟ .

ـ دعني أرجع أدراجي : .

ـ ولكنه الهوى في النفس وعزيمـــة صحت من عهد ليس بالقريب لأكشف لنفسي ، أو لغيري ـ إذا جاز لي ـ ذلك اللغز المعمى ومن يستطيع أن يدافع ذلك من نفسه .

على أني اجد في بحثي سلوة ومتعة يلذ لي فيه أن ألمس بعض الحقائق عن بصيرة، ومتعة اخرى أن اسجله إنتاجاً باقياً للناس.

وأيضاً لما كنت احاول ـ إن صدقتني المحاولة ـ أن احيط بأسرار الحادثة وفلسفتها ونتائجها ، فلا يكون ما أكتبه تأريخاً مجرداً جافاً واحدوثة خالية من ذوق ، فإن ذلك يستحثنى على المضي في البحث ويشجعني على إخراجه للناس .وإن كان فيــه صعوبة اخرى قد تقحمتها وحببت إلي عبؤها الثقيل .

وبعد التفكير والمحاولات مدة طويلة هديت إلى شيء واحد بالأخير أرجو أن أبتعد بسببه عن تأثير العواطف ولعبها بالعقول وأقترب من الحق والصدق ، هو أن أكثر من مراجعاتي لمؤلفات من اخالفه في الرأي من ناحية مذهبية ، بل أجعلها هي المصدر

في البحث وظني أن بهذا سيحصل التفاعل من الجانبين : عقيدتي وهذه المصادر ، لينتج ما قد يسمونه (الوسط في الرأي) ، أو تكون الحقيقة قد اهتديت إليها بهذه الحيلة إن طاوعتني .

وقد أخذت على نفسي في هذا الكتاب أن اسجل خلاصة مطالعاتي ومحاكماتي التأريخية بعد أن سبرت كثيراً من المصادر القديمة التي أشرت اليها آنفاً ، فإذا كنت اذكر حديثاً أو حادثاً تأريخياً توافرت المصادر على ذكره وتوثيقه ، فإني لا اذكر معه تلك المصادر توفيراً على القارىء خشية إعناته بدون جدوى ، إلا بعض الأحاديث التي ينفرد بها مصدر أو مصدران فإني أضطر إضطراراً إلى ذكر المصدر في التعليقة تنويراً لذهن القارىء غير المتتبع .

وكل جهدي أن أضع بين يدي القارىء صورة مصغرة مما اهتديت اليه من أفكار ؛ أرجو ان تكون خالصة من تأثير العواطف والنزعات حرة هي الحق كله أو قريبة من الحق ، وبالله التوفيق ومنه التسديد .

شهر رمضان ١٣٥٣ هجرية

المؤلف

تمهيد :

في عام ١١ للهجرة يفعل الدهر فعلته الاولى ، فيقلب صفحة من صفحات التأريخ الإسلامي المجيد ، كتبت بأحرف من النور الإلهي . كلها إيمان وصدق ، جهاد وتضحية ، فخر وقوة ، عز ومجد ، عدل ورحمة ، اخوة وإنسانية .

يقلب الدهر هذه الصفحة الناصعة بالخيرات والفضائل ، بافول ذلك النور المقدس من الأرض ، فيستقبل بالمسلمين صفحة من كتابه التكويني مشوشة الخط قال عنها الكتاب التشريعي: (أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ...)

لا شك عند من يعترف بالقرآن الكريم وحياً إلهياً لا ينطق صاحبه عن الهوى ، في أن هذا الحادث التأريخي العظيم أو

الصاعقة السماوية بموت منقذ الإنسانية ، كان حداً فاصلاً بين عهدين يختلفان كل الاختلاف ذاك اقبال بالنفس والنفيس على الحق تعالى ، وهذا إنقلاب عنه على الأعقاب .

إذن نحن الآن أمام أمر واقع :

مات النبي ﷺ !

ولا بد أن يكون المسلمون (ـ كلهم ؟ ـ لا ادري الآن) قد انقلبوا على أعقابهم .

ولكن .. (واللعنة على لكن التي لا يستغني عنها كلام) . ولكن بأي حادث كان مظهر هذا الانقلاب ؟ .

* * *

أعطني من نفسك ـ أيها القَاريء ـ وفكر بحرية ، والتمس لي حادثاً ذا بال وقع بعد وفاة صاحب الرسالة مباشرة ، فنضج برذاذه جميع المسلمين ، فهل تجد غير حادث « السقيفة » ؟ ما أعظمه من حادث ! وهل تدري أن الشيعة تفسر الآية الكريمة به ؟ .

فإذا أردنا الآن أن نبحث عن « السقيفة » ، فإنما نبحث عن اعظم حدث في الإسلام ، وأول حادثة بعد الوفاة ، له علاقته الخاصة بالآية الكريمة ، أتفسر به أم لا ؟ .

وعلى هذا الأساس قلت في المقدمة : « شرق فيها قوم وغرب آخرون » فدخلت العقائد والأهواء في سرد الحادثة ؛ فكانت ذات ألوان ووجوه يكد فيها الباحث ، ويجهد مستهدف الحقيقة .

* * *

وما علي لو أدعي قبل الدخول في بحث السقيفة أن الآية الكريمة تفسر بحوادث الردة التي وقعت في خلافة أبي بكر . ولكن لا اطمئن إلى هذا الاحتمال ، ما دامت الآية تشعرنا بأن الانقلاب يقع بعد موت النبي مباشرة وما دامت هي خطابا لجميع المسلمين ، وأهل الردة ـ كيفما فرضناهم ـ هم أقل القليل من المسلمين . بل في العدوة القصوى منهم .

وفوق ذلك نجد أن عدة من نسميهم بأهل الردة هم المتنبئون وأشياعهم ، كمسيلمة وأتباعه ، وطلحة وأوليائه . وهؤلاء كانوا في عهد النبي واستغلظ أمرهم بعده ، ما عدا سجاح التميمية ، وما كان لها كبير شأن وقد اندمجت بمسيلمة . أما الأسود العنسي فقد قتل في حياة الرسول ولازم أنصاره طريقته بعده. وعلقمة بن علاثة ارتد في زمانه ﷺ ومثله ام رفل سلمى بنت مالك وتابعوها .

أفيصح أن نقول: إن هؤلاء انقلبوا على الأعقاب بعد النبي، وكان الخطاب بالآية لهم؟ اللهم ان هذا يأبى الانصاف ان يصدق به، عند من كان له شيء من حرية الرأي وصحة التفكير.

ومالك بن نويرة[1].

ـ مالك وادع سجاح (الموادعة: المتاركة والمسالمة على ترك الحرب كما كان كعب القرضي موادعاً لرسول الله). وليست الموادعة من الردة في شيء. وأكثر من ذلك إنما كانت منه لمصلحة المسلمين، ليرد سجاح عن غزوهم في تلك الاصقاع النائية عن مركز المسلمين. وكان الذي أراد.

وإن كانت تلك الموادعة ذنباً، فقد أظهر هو وقومه التوبة بعد ذلك، كما صنع وكيع وسماعة، وهما وادعا سجاح أيضاً، وقبل المسلمون المحاربون توبتهما.

وهذا أبو بكر يدي مالكاً إذ قتله خالد بن الوليد وخلا بزوجته ليلة قتله، فهل تفسر بهذا آية الانقلاب.

ولا ذنب لمالك ـ إذ عد من أهل الردة ـ إلا ان قاتله بطل المسلمين يومئذ وقائدهم. وحقيق عليهم ان يدفعوا عن فعلته

(١) وبه يضرب المثل المشهور: «فتى ولا كمالك».

ويبرروا عمله . فليكن مالك مرتداً يستحق القتل ! وما يهمنا مالكاً بما يستحق وبما لا يستحق ، ما دامت كرامة خـــالد محفوظة مصونة من النقد .

عمر بن الخطاب يريد أن يؤخذ خالد بقتله لمالك ونزوه على زوجته وأبو بكر يعتذر عنه (انه اجتهد فأخطأ) . وما الخطأ على المجتهدين بعزيز . وهذا من أوليات أبي بكر ، إذ يجعل الاجتهاد عذراً للمخالفة الصريحة للقانون الإسلامي .

وأبو بكر لم يقل لمتمم أخي مالك أنه ارتد فقتل بل قال له: ما دعوته وما قتلته ، لما قال له متمم من أبيات :

أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

نعم ! التأريخ ينزه مالكاً . وقضى الدفاع عن خالد أن يحكم بعض الكتاب في هذا العصر بكفر مالك وارتداده !.

* * *

ومن هم أهل الردة غير هؤلاء ؟.

ـ مانعوا الزكاة .

ـ مانعوا الزكاة؟ ! من هؤلاء بأسمائهم وقبائلهم! ليت أحداً يرشدني إليهم ! فقد وجدت التأريخ يجمجم في ذكرهم فيحصر ،

ويروح ويغدو فلا يجد غير المتنبئين وأشياعهم .

وأبو بكر لما قال كلمته المشهورة: «لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه » ، فإنما قالها عندما جاء وفد طليحة المتنبىء المتقدم ذكره يطلبون الموادعة على الصلاة وترك الزكاة ، لا في قوم غير المتنبئين.

وإذا كانوا ــ وربما كانت بعض القبائل المجهولة امتنعت عن الزكاة ــ فهل العصيان بترك واجب ، وهم يقيمون الصلاة يكون كفراً وإرتداداً ؟ بأي مذهب وبأي دين ؟ فليتأول المتأولون ما شاؤا .

ولم يعرف عنهم أنهم أنكروا وجوب الزكاة بقول ، حتى يكون من منكري ضروريات الدين الذين يعدون في الكافرين المرتدين . وأكثر ما عرف عنهم إذا كان لهم وجود غير المتنبئين انهم إمتنعوا عن أدائها .

ولا تفلق دعوى المدعي أن هؤلاء انكروا بيعة أبي بكر التي كانت عن غير مشورة من المسلمين كما صرح به عمر بن الخطاب ، فلم يعترفوا له بإمامة وولاية حتى يؤدوا له الزكاة . ولعلهم كانوا يطالبون بخلافة من كان النص من النبي على خلافته ، فأهمل مطالبتهم التأريخ .

هذه احتمالات لا يفندها التأريخ والاعتبار ، وادعتها الشيعة

فيهم، فما لنا بتكذيبهامن برهان، فالأحسن لنا ألا نعترف بوجودهم كما أهمل التأريخ اسماءهم وقبائلهم .

ومهما كان الأمر ، فإن استطاع الكاتب أن يثبت الانقلاب بأول حدث في الإسلام ، فلا يهمه ماذا سيكون شأن الحوادث اللاحقة ، بل يستعين على تفسيرها بتفسير الحادث الأول ، وكفى .

وأجدني مضطراً قبل كل شيء إلى أن أقف مع القارىء على ما صنعه النبي ﷺ ، من حل للخلاف بعده : أما في وصية باستخلاف أحد ، أو في قاعدة مضبوطة يرجعون إليها ، أو أنه أهمل الأمر وتركهم وشأنهم . لأن هذا البحث له علاقة قوية في موضوع بحثنا ، يتوقف عليه تفسير كثير من الحوادث .

إذن سنعقد الكتاب على أربعة فصول :

الفصل الأول ـ في موقف النبي تجاه الخلافة

الفصل الثاني ـ في تدبيره لمنع الخلاف

الفصل الثالث ـ في بيعة السقيفة

الفصل الرابع ـ موقف علي بن أبي طالب

الفصل الأول :
موقف النبي تجاه الخلافة

١ ـ هل كان يعلم بأمر الخلافة ؟

هل تجد من نفسك الميل إلى الاعتقاد بأن النبي ﷺ كان لا يعلم بما سيجري بعده: من خلافات وحوادث من أجل الخلافة؟ وهل تراه كان غافلاً عما يجب في هذا السبيل ؟.

إذا كان لك هذا الميل فلا كلام لي معك ، وأرجو منك ـ يا قارئي العزيز علي ـ أن تلقي الكتاب عندئذ عنك ولا تتعب نفسك بالاستمرار معي إلى آخر الحديث ، لأني أفرض قارئي مسلماً يؤمن بالنبي ورسالته ، ويعرف من تأريخه ما يكفيه في طرد هذا الوهم .

فإن من يمت إلى الإسلام بصلة العقيدة لا بد أن يثبت عنده على الأقل أن صاحبه صرح في مقامات كثيرة بما ستحدثه امته من بعده فقد قال غير مرة : « ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ، فرقة ناجية والباقون فى النار » .

وأكثر من ذلك أنه لم يستثن من أصحابه إلا مثل همل النعم، ثم هم يدخلون النار بارتدادهم بعده على ادبارهم القهقرى، أو يردون عليه الحوض فيختلجون بما أحدثوا بعده. وفي بعض الأحاديث: «فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[1].

وأخبرهم أنهم يتبعون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعوهم.

و«الخلافة» أمر كانت تحدثه به نفسه الشريفة، ويشير اليها انها ستكون ملكاً عضوضاً بعد الثلاثين سنة. وثبت أنه قال: «هذا الأمر لا ينقضي حتى يمض اثني عشر خليفة كلهم من قريش». وقال: «من لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». وقال ... وقال ... إلى ما لا يحصى.

وسيرته والأحاديث عنه ـ وما اكثرها ـ تشهد شهادة قطعية على ما كان يعلمه من اختلاف امته، وعلى أن الخلافة والإمامة من اولى القضايا التي كانت نصب عينيه.

---

(١) صحيح مسلم ٨ : ١٠٧ وغيره.

٢ - هل وضع حلا للخلاف ؟

إذن كان ﷺ عالماً بأن الدهر سيقلب لامته صفحة مملوءة بالحوادث والفتن ، والخلافات والمحن ، وان لا بد لهم من خلافة وإمارة .

فلا بد أن نفرض أنه قد وضع حلاً مرضياً لهذا الأمر يكون حداً للمنازعات وقاعدة يرجع اليها الناس ، لتكون حجة على المنافقين والمعاندين وسلاحاً للمؤمنين ، ما دمنا نعتقد أنه نبي مرسل جاء بشيراً ونذيراً للعالمين إلى يوم يبعثون ، فلم يكن دينه خاصاً بعصره ، ليترك امته من بعده سدى من غير داع أو طريقة يتبعونها ، مع علمه بافتراق امته في ذلك .

ولا يصح من حاكم عادل أن يحكم بنجاة فرقة واحدة على الصدفة من دون بيان وحجة تكون سبباً لنجاتهم باتباعها ، وسبباً لهلاك باقي الفرق بتركها .

لنفرض أن الحديث والتأريخ لم يسجلا لنا الحل الذي نطمئن اليه ، فهل يصح أن نصدقهما بهذا الاهمال ، ونوافقهما على أن النبي ترك امته سدى ، وفي فوضوية لا حد لها يختلفون ويتضاربون ثم يتقاتلون ، وتراق آلاف آلاف الدماء المسلمة ، ساكتاً عن اعظم أمر مني به الاسلام والمسلمون ، مع أنه كان على علم به ؟ .

ولو كنا نصدقها مستسلمين لكذبنا عقولنا وتفكيرنا ، فإن الإسلام جاء رحمة لينقذ العالم الإسلامي من الهمجية والجاهلية الاولى ، فكيف يقر تلك المجازر البشرية في أقصى حدودها ، تلك المجازر التي لم يحدث التأريخ عن مثلها ولا عن بعض منها في عصر الجاهليين .

فما علينا إلا أن نتهم التأريخ والحديث بالكتمان وتشويه الحقيقة بقصد أو بغير قصد . ولئن لم يكن محمد نبياً مرسلاً يعلم عن وحي ويحكم بوحي فليكن ـ على الأقل ـ أعظم سياسي في العالم كله لا أعظم منه ، فكيف يخفى عليه مثل هذا الأمر العظيم لصلاح الامة بل العالم بأسره مدى الدهر ، أو يعلم به ولا يضع له حداً فاصلاً ؟ .

وهل يرضى لنفسه عاقل يتولى شئون بلدة فضلاً عن امة ، أن يتركها تحت رحمة الأهواء واختلاف الآراء ولو لأمد محدود وهو قادر على اصلاحها ، أو التنويه عن اصلاحها إلا أن يكون مسلوباً من كل رحمة وإنسانية ؟ حاشا نبينا الأكرم من جاء رحمة للعالمين ومتمماً لمكارم الأخلاق وخاتماً للنبيين ! وقد قال الله تعالى على لسانه بعد حجة الوداع : « اليوم أكملت لكم دينكم » .

وقد وجدناه نفسه لا يترك حتى المدينة المنورة ، إدا خرج لحرب أو غزاة ، من غير أمير يخلفه عليها ، فكيف نصدق عنه أنه أهمل أمر هذه الامة العظيمة بعده إلى آخر الدهر ، من دون وضع قاعدة يرجعون إليها أو تعيين خلف بعده .

٣ - إيكال الأمر إلى اختيار الأمة

لنختار الآن لحل هذه المشكلة أنه ﷺ أو كل امته إلى اختيارهم ، أو إلى اختيار أهل الحل والعقد منهم خاصة في تقرير شئون الخلافة . فهل يصح هذا الفرض للحل ؟ .

أما أنا - أيها القارىء - لا أستطيع أن أقتنع بأن هذا الفرض يكون حلاً مرضياً لهذه المشكلة ، ولعلك أنت ترى مع من يرى أن تعيين الرئيس بالانتخاب من أرقى التشريعات الحديثة وقد سبق إليه الإسلام ، فهذا من مفاخره .

فوجب علينا أن نبحث هذه الناحية العلمية بدقة ، وأملي - كما هو مفروض - انك تعطيني من نفسك النصف وتفكر معي تفكيراً حراً ، بعيداً عن تأثير العاطفة التي تقضي علينا أن نتمسك بهذه المفخرة للإسلام .

ولا ينبغي لنا أن نحاول هذه المحاولة ، فربما نلصق به ما

ليس له . ولعلها لا تثبت للبحث مفخرة يمتدح بها ، فنكون قد نقضنا غرضنا الذي نريده من إثبات الفضيلة للاسلام بالسبق إلى هذا التشريع .

والذي أدَّعيه الآن أنَّ إرجاعَ الامةِ مدى الدهرِ إلى اختيارِها في تعيينِ الرئيسِ لها هو عينُ الفوضويةِ التي أردنا التخلص منها في البحث السابق ، وليس معناه إلا إلقاء الامة في أعظم هوة من الخلاف لا حد لها ولا قعر .

وسر ذلك أن الناس مختلفون متباينون ، ليس بينهم اثنان يتفقان في فكر أو عاطفة أو ذوق أو عادة أو عمـــل ، حتى التوءمين ، إلا من التشابه القريب أو البعيد من غير اتفـــاق حقيقي ، كاختلافهم في أجسامهم وسحنات وجوههم ، وتشابههم في ذلك . بل الناس مختلفون في كل شيء من دقائـــق أجسادهم وأخلاقهم ونفوسهم وعاداتهم فلم يتفق لشخصين أن يتفقا تحقيقاً حتى في بصمة الأصابع ، حتى قيل ان كل فرد من الإنسان نوع برأسه .

وعليه ، فيستحيل أن تتفق أهل بلدة واحدة على حكم واحد أو عمل واحد ، فضلاً عن امة كبيرة كالأمة الإسلامية على توالي الزمان . وبالأخص إذا كان الحكم مسرحاً للعواطف والأغراض

الشخصية والتحيزات كالحكم في الزعامة العامة

ومن هذا نستنتج أن الرأي العام الحقيقي غير موجود أبداً، بل يستحيل وجوده لأية امة في العالم ، ومن خطل الرأي أن يطلب الإنسان تكوين الرأي العام ، وتوحيد اختيار الامة بأسرها لأمر من الامور ، على أن محاولة ذلك يستحيل أن تَسْلَم من منازعات دموية واضطرابات شديدة إذا كان تكوينه يراد لأمر ذي شأن، إلا أن يكون هنا حاكم يفصل بين المتنازعين بما له من القوة القاهرة لمخالفيه، كما هو موجود فعلاً في الانتخابات الجارية عند الأمم المتمدنة ، فإن تحكيم الأكثرية ذات القوة الطبيعية خير علاج للقضاء على منازاعاتهم في الامور العامة .

وتحكيم الأكثرية في الحقيقة فرار من محاولة تكوين الرأي العام الحقيقي ، بل هو اعتراف باستحالته، ومع ذلك لم يستغن غالباً الرجوع إلى الأكثرية ليكون لها الفصل عن ملطفات ومؤثرات اخرى تنضم إلى قوته الطبيعية ، أهمها : سلطة الحكومة والقانون العام القاضي بتحكيم الأكثرية الذي أصبح بحكم التقليد مسيطراً على معتنقيه .

وبتوسيط أمثال هذه الامور تمكن التسوية بين الأكثرية على رأي متوسط ،وإلا فالاتفاق الحقيقي على تفاصيل الامور يستحيل

حتى في الأكثرية .

وهذا الرجوع إلى الأكثرية آخر ما توصل اليه الإنسان بعد العجز عن تحصيل الاتفاق الحقيقي وبعد أن فشل البشر على مر تلك القرون الطويلة التي انهكته بالتجارب القاسية ، فوجد ذلك خير ضمان للسلام في الامم . وليس معنى ذلك أن الأكثرية لا تخطأ ، كيف والجماعات دائماً تفكر بأحط فكرة فيها ، ومن مزاياها إنها خاضعة لسلطان العاطفة ، فهي علاج لفض المنازعات ليس الا ، لا لضمان تحصيل الرأي الصائب .

وبهذا البيان نخرج إلى فكرة ان تعيين الرئيس أو غيره بالانتخاب الذي هو من أرقى التشريعات الحديثة معناه الرجوع إلى الأكثرية دائماً التي اصبحت من التقاليد المرعية عند الناس في هذا العصر . وهذا لم يسبق اليه الاسلام ، ومن يدعي ان النبي ﷺ أوكل امته إلى اختيارهم في تقرير شؤون الخلافة لا يدعي انه قد شرع قانون الأكثرية لأنه ليس لهذه الدعوى شاهد في زبر الأولين ، وعلى انه — كما ذكرنا — لا يسلم من الخطأ ، فلا يسوغ لنا ان ننسبه إلى من لا ينطق إلا عن وحي ولا يريد إلا الحق .

وإذا ادعى انه اوكل الأمر إلى اتفاق امته واختيارهم جميعاً، فمن أخطل الري ، إلا اذا جوزنا عليه ان يطلب المستحيل او

تعمّد ايقاعَ امته في منازعات دائمية تفضي إلى ازهاق النفوس واضعاف القوى المادية والأدبية ، ثم إلى ضعف كلمة الاسلام في الأرض .

فتلخص ان هذا التشريع أعني تشريع تعيين الامام بالانتخاب لا يصحُ لنا ان ننسبه إلى منقذ البشرية من الضلالة إلى الهدى الذي لا ينطق إلا عن وحي ، سواء فسرناه بالأكثرية او باتفاق الجميع

* * *

ومهما حاولنا اصلاح هذا التشريع بتفسير الامة بأهل الحل والعقد منها خاصة ، فلا أجد هذه المحاولة تسلم من ذلك النقص البارز فان أهل الحل والعقد وكبار الامة هم بؤرة الخلاف والنزاع. فان الخاصة مع إختلاف نفوسهم وتباين نزعاتهم كسائر الناس . لا ينفكون عن تحيزات فيهم اعظم منها في غيرهم ، ويندر ان يتجردوا من اهواء نفسية واغراض شخصية تجعل كل فرد يشرئب إلى هذا المنصب الرفيع ما هيء له ووجد مجالاً لارتقائه ، ولو عن غير قصد ، بل عن رغبة نفسية كامنة هي غريزية لا يفطن لها صاحبها او لا يعدها باطلاً وخروجاً عن محجة الصواب . بل حب النفس قد يحمله على الاعتقاد بأن

زعامته اصلح للامة واجدى ، فيوحي الهوى للنفس البرهان
المقنع على صحة رأيه .

وللمعتقد ان يعتقد ان الخليفة ابا بكر تفطن إلى سوء عواقب
هذا التشريع ، فأسرع إلى تعيين الخليفة من بعده . بالرغم على
جدة هذا التشريع الذي به كان خليفه ، وعلى تركزه في النفوس
تتوقف صحة خلافته . كيف لا وقد شاهد هو الموقف في بيعته
يوم السقيفة ، وكان أدق من سم الخياط مع غفلة الناس يومئذ
عن الأمر . وانشغالهم بفاجعة نبيهم .

وهكذا حذا حذوه خليفته ، فاخترع طريقة الشورى من
ستة اشخاص،وهي تبعد كل البعد عن قاعدة الرجوع إلى اختيار
اهل الحل والعقد ، على أنا وجدنا هؤلاء – وهم ستة لا غير – لم
يتفقوا على رأي واحد ، فلعبت دورها التحيزات والعواطف ،
"فصغى رجل لضغنه ، ومال الآخر لصهره" على حد تعبير الامام
علي بن ابي طالب .

ولا شك لم يَخْفَ على الخليفة عمر استحالة حتى اتفاق الجماعة
الصغير فحكم فيها قاعدة الأكثرية ، وعند التساوي فالكفة
الراجحة التي فيها عبد الرحمن بن عوف . ومع ذلك حدد لهم
الوقت بثلاثة أيام ، واعطى السلطة التنفيذية لغيرهم ،ليقهرهم على

لتنفيذ خطته .

لماذا كل هذه القيود الذي وضعها ، مع تهديدهم بالقتل إن أخروا عن الموعد ولم يبرموا العهد ؟ لا شك إنها كانت لقصد لابتعاد عن الخلاف والنزاع الطبيعي لمثل هذا الأمر . إذا ألقي حبله على غاربه .

وهنا وجدناه كيف حكم عمر بن الخطاب وضع هذه الخطة ، اتقاء للخلاف والنزاع على الامارة التي لا ينفك عادة عن إراقة الدماء ، في وقت أراد ألا يتحمل تبعة تعيين شخص الخليفة بعده او انه في الأصح لم يجد نفسه تميل كل الميل إلا لتعيين احد الثلاثة الذين قد ماتوا يومئذ ، وهم ابو عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى ابي حذيفة ، ومعاذ بن جبل .

* * *

ولا عجب ان يكون ابو بكر وعمر تفطنا إلى ما في تشريع إلقاء الأمر على عاتق اختيار الامة من فساد ، وما ينجم منه من جدال وجلاد . ولكن عجبي ممن يتسرع فينسب ذلك التشريع إلى النبي الحكيم الذي لا يفعل إلا عن وحي ولا يحكم إلا بوحي . ومع ذلك يدعي الإسلام وعرفان الرسول العظيم .

ولو كان للخليفة عثمان كلمة تسمع ورأي يطاع يوم حوصر وأيس من الحياة ، لما تأخر عن تعيين من يخلفه قطعاً . ولكن الموقف كان أبعد من ان يتحكم عليه بمثل ذلك، وهو محاط به ليخلع .

ومما يزيدنا اعتقاداً بعقم هذا الحل لمشكلتنا الاجتماعية الخطيرة ، انا لم نعرف خليفة تعين بهذه الطريقة إلا ابا بكر وعلي بن ابي طالب وابو بكر كانت بيعته فتنة او فلتة وقى الله شرها على حد تعبير عمر عنها وهو نفسه الذي شيد اركانها ،ومع ذلك قال عنها : « فمن دعا إلى مثلها فهو الذي لا بيعة له ولا لمن بايعه » [1] .

أما علي عليه السلام ، فبعد تمام البيعة له «الشرعية بنظر اصحاب هذا الرأي » قد وجدنا كيف انتقض عليه نفس اهل الحل والعقد ، والاسلام بعد لم يرث والعهد قريب ، وهؤلاء المنتقضون هم جلة الصحابة . فكانت حرب الجمل فحرب صفين اللتان اريقت بهما آلاف الدماء المحرمة هدراً . وانتهكت فيهما حرمات الشريعة . وشلت بهما حركة الدين الإسلامي .

---

(١) كنز العمال ـ ج ٣ ـ رقم ٢٣٢٦ وغيره .

لم نعرف بعد [illegible] خليفة تعين إلا بتعيين من قبله او بحد السيف ، ولقد لعب السيف دوراً قاسياً جعل العالم الاسلامي يخر في بحر من الدماء ولم يجرىء الطامعين بالخلافة على خوض غمار الحروب إلا سن هذا القانون قانون الاختيار ، فمهد السبيل لطلحة والزبير أن يشعلا نار حرب الجمل ،ومهد لمعاوية ما اجترم ، ولابن الزبير تطاوله للخلافة وهو القصير ، وللعباسيين ثورتهم على الامويين ولغيرهم ما شئت ان تحدث والحديث ذو شجون .

إلى هنا اجد من نفسي القناعة والاطمئنان إلى القول بفساد تشريع تعيين الامام باختيار اهل الحل والعقد . وهيهات ان يكون من النبي الحكيم مثل هذا التشريع .

وكيف يخفى عليه ضرر هذا التشريع ، ولا يخفى على عائشة ام المؤمنين يوم تقول لعمر على لسان ابنه عبد الله : «لا تدع امة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً فإني أخشى عليهم الفتنة » .

وما ادري لماذا لم يشر أحد على محمد عليه افضل التحيات ان يستخلف او يبين على الأقل طريقة الاستخلاف حتى لا يفتتنوا ، كما اشارت عائشة على عمر ؟ ولماذا لم يسأله احد عن هذا الأمر ، وهم يسألونه عن الكبيرة والصغيرة لماذا ؟ ...

والمرجح انه سئل فأجاب، ولكن التأريخ هو المتهم في اهمال مثل هذه القضايا، على ان تأريخ الشيعة لم يهمل مثل هذا السؤال والجواب الصريح عليه .

٤ ـ لا نص في قاعدة الاختيار

لنتنازل الآن عن جميع ما قلناه في البحث السابق من فساد تشريع قاعدة الاختيار ، ولكن ألا يجب علينا ان نسأل مدعي صدور هذا التشريع من النبي عن الدليل عليه في كتاب او سنة .

وبودي ان يدلني أحد على قول الرسول في هذا الشأن ، فما سمعنا عنه انه قال يوماً : ان الإختيار في تعيين الامام لأهل الحل والعقد ، اوانه أمر الامة باختيار الامام بعده ، لا تصريحاً ولا تلويحاً . على ان الدواعي جد متوفرة لنقل مثل هذا القول ، والقوة والحول في صدر الاسلام إلى ما بعده في يد من يرتئي هذا الرأي ويدافع عنه ، فليس لأحد ان يدعي ان هذا الاثر قد خفي علينا او امتنع الرواة عن نقله .

أجل ! إلا ان الله تعالى قال في كتابه العزيز : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

إذن لم يثبت عن النبي قول وتصريح في هذا الأمر من الاتكال

على اختيار الامة ، بل قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة » . فلنذهب الآن من طريق ثانية إلى إثبات صحة هذا التشريع ، فنقول :

« أليس النبي كان غير غافل عن أمر الخلافة ! ولكنه سكت عن الحل لمشكلتها بطريق النص على أحد من اصحابه ، فلا بد انه أوكل ذلك إلى اختيار امته ، فيكون سكوته إذن دليلاً على هذا الايكال » .

وهذا يقرب من التفكير الصحيح لأول وهلة ، إذا استطعنا التصديق بسكوته عن النص ، فلذلك لا يصح إلا إذا ثبت لنا ان لا نص هناك ، فوجب ان ننظر فيما تقوله اهل السنة والشيعة من النص على ابي بكر أو على علي بن ابي طالب . وسيأتي في البحث (٧) و (٨) .

ولكن لو فكرنا قليلاً ، فلا نرضى لمصلح عاقل فضلاً عن النبي الكريم ان يرمز لهذا الأمر العظيم الذي وقع فيه اعظم خلاف في الامة بمثل هذا الرمز الخفي . وما الذي يلجئه إلى مثل هذا الدليل الصامت ـ إن صح هذا التعبير ـ مع علمه بما سيقع بعده من انشقاق وخلاف تتسع شقته هذا الاتساع ، وتتخلله فتن وحروب انهكت المسلمين وأفسدت روحية الاسلام ؟

أما كان الجدير ـ إذا لم يكن قد نص على احد ـ ان يصرح لامته بايكال الأمر إلى اختيارهم ؟ ثم يحدده باختيار أهل الحل والعقد منهم . او يحدده بخصوص أهل المدينة او أهل عاصمة الخلافة ، ثم يكتفي باختيار الواحد والاثنين منهم « على ما يذهب اليه جماعة من علماء أهل السنة » ، ثم يذكر شروط الإمام حتى يعرفوا من يجب أن يختاروه !.

أكل هذه الامور والقيود نستقيها من هذا الدليل الصامت . ويكون هذا السكوت حجة على من يشكك في واحد من هذه الشئون فيستحق عقاب الخالق الجبار ، ثم مع ذلك يخرج عن ربقة الاسلام ويدخل في زمرة الكافرين ؟.

اللهم اشهد علي انى لا أستطيع ان اؤمن بصحة دليل صامت يدل هذه الدلالة الواسعة على اعظم الشئون العامة التي يعم بلاؤها جميع الخلق في كل زمان ومكان ، في وقت الحاجة إلى دليل ناطق وحجة واضحة .

اللهم اشهد انى لا استطيع ان اؤمن بذلك إلا إذا فقدت حرية التفكير ومسكة العقل .

٥ ـ اختلاف إمتي رحمة

واخشى الآن أن أكون قد أخذت بقلمي النعرة المذهبية في نحثي السابق ، فبالغت في تشويه تلك الدعوى وخرجت عن خطتي التي رسمتها لنفسي .

وهل تراني أخفف من وطأة تلك السورة ، فأطمئن إلى تعليل مقبول لذلك الصمت ، بأن أقول : إن الرسول إنما ترك بيان هذا الأمر ليوقع الخلاف بين امته رحمة بهم لما روى عنه : « اختلاف امتي رحمة » ؟.

ولكن هيهات ! إن لم تؤول الكلمة بما يتفق ومبادىء الإسلام [1] فإنها الكذب الصراح على داعية الوحدة ومقاتل

---

(١) هذه الكلمة مروية من طرق الطرفين . والوارد في تفسيرها عن آل البيت غير ما يتخيل من ظاهرها ففي علل الشرائع : « أنه قيل للامام جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام : ان قوماً يروون أن رسول الله قال : (اختلاف امتي رحمة) ، فقال : صدقوا ، فقيل : إذا كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب ؛ قال : ليس حيث تذهب وذهبوا إنما أراد قول الله عز وجل (فلو لا نفر من كل فرقة طائفة ..) واختلاف أهل البلدان إلى نبيهم ثم من عنده إلى بلادهم رحمة .. » الخبر . ومثله في معاني الأخبار للصدوق ، وفيه : « إنما أراد اختلافهم من البلدان لا اختلافاً في دين الله ، إنما الدين واحد » .

نزعات الجاهلية الاولى بسيف من الاخوة الإسلامية انتشل العرب من هوة عميقة للتفرق والنزاع والنزال .

إن أكبر ظاهرة للإسلام بل من أعظم أعماله ، تلك الدعوة إلى الوحدة المطلقة بأوسع معانيها وتحطيم الفروق حتى بين الشعوب والامم المختلفة . ألا « إنما المؤمنون إخوة » .

وليس هناك شيء في الإسلام غني عن البرهان بل عن البيان مثل دعوته إلى الوحدة والعمل لها بكل الوسائل ، ليكون المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . وقد تجلى ذلك ظاهراً في كثير من الأحكام العملية : في وجوب الحج وصلاة الجمعة والجماعة وحرمة الغيبة واللمز والغمز والقذف ... وما إلى ذلك مما لا يحصى ، وبعد هذا أيمكننا ان نجرء فندعي ان الرسول يدعو إلى الخلاف ! وأكثر من ذلك يسعي إلى التفرقة ، واية تفرقة هي ؟ إن هذا لبهتان عظيم وزور مبين! اللهم انى استجير بك من شطحات القلم والتفكير .

٦ ـ الاجماع على قاعدة الاختيار

وهنا لا بد ان ننصف في القول فلا نجري الكلام على عواهنه ، فإني لم أعرف عن إخواننا أهل السنة إنهم فسروا هذا الصمت

المدعي بذلك التفسير إلا من قل . وعلى الأقل انهم لم يجعلوه وحده دليلاً على إيكال أمر الخلافة لاختيار أهل الحل والعقد ، وإنما يستمدون باجماع أهل الصدر الأول على كفاية اختيار أهل الحل والعقد ، بدليل بيعة أبي بكر يوم السقيفة . وعندهم الإجماع حجة لما روي عنه عليه الصلاة والسلام ، « لا تجتمع امتي على الخطأ » و « لا تجتمع امتي على ضلال » .

ولكن الشيعة لا يعتبرون مثل هذا الإجماع . وإنما يعتبرون الإجماع إذا كشف عن رضى إمام معصوم حيث يكون داخلاً في أحد المجمعين . وبيعة أبي بكر لم تقترن بموافقة الإمام وهو علي بن ابي طالب فلم يتم عندهم الإجماع الذي يكون حجة .

ويذهبون إلى أكثر من ذلك ، فيقولون إن الاجماع بكل معانيه لم ينعقد على صحة بيعة ابي بكر ، لمخالفة علي الذي يدور معه الحق حيثما دار ومخالفة قومه بني هاشم وسعد بن عبادة وابنه وجماعة من كبار الصحابة كسلمان وابي ذر والمقداد وعمار والزبير وخالد بن سعيد وحذيفة بن اليمان وبريدة وغيرهم . ولم يبايع من بايع منهم بعد ذلك إلا قهراً واضطراراً حفظاً لبيضة الإسلام وتوحيداً لكلمة المسلمين . ولا يصح بحال ان يدعي أن هؤلاء ليسوا من أهل الحل والعقد ، وهم من تعرف . ويقول الشيعة

أيضاً : لم يتكرر بعد ذلك تعيين الامام باختيار أهل الحل والعقد ، حتى نؤمن بحصول الاجماع على صحة الاختيار في تعيينه ، لان كل خليفة تعين إنما تعيّن بنص السابق عليه أو بحد السيف والقوة ، ما عدا علي بن ابي طالب عليه السلام ، وهو إمام بالنص من النبي صلى الله عليه وآله ولا شأن لاختيار الامة في إمامته .

* * *

هكذا اختلف الطرفان ، واجدني الآن حائراً إزاء أدلة الطرفين . وإذا اردت ان أعالج في بحثي حادث السقيفة فإنما اعالجه من عدة نواح هذه أهمها ، فهل استطيع ان استنتج الحكم الفاصل لاحدى الطائفتين ؟ هذا ما قد يكشفه مستقبل البحث ، وكل آت قريب . ولا اتنبأ بالنتيجة قبل وقتها .

وكنت راغباً في بحثي هنا ان احصل على نتيجة حاسمة قبل الدخول في تفسير حوادث السقيفة ، بل قبل الدخول في البحث عن النص على الامام بعد النبي في هذا الفصل ، ولكني هنا وجدت هذه المسائل متداخلة بعضها آخذ برقاب بعض .

ومع ذلك أجد بامكاني ان أضع تقريراً يقرب من التفكير الصحيح مع الاعراض عما يقوله الطرفان في هذا الشأن ، مستعيناً

بما تقدم في الابحاث السابقة ، فهل تعير ني تفكيرك لحظة ؟

لاحظ انك لا شك - وانا معك - ان النبي ما فاه ولا بنت شفة عن قاعدة انعقاد الامامة باختيار أهل الحل والعقد ، مع ان الواجب يدعو للبيان الصريح ، كما قلنا آنفاً ، فلماذا سكت عن ذلك ؟ .

أكان إهمالاً وتوريطاً للمسلمين في الخلاف والنزاع ، او أنه لم يشرع مثل هذا التشريع ؟ والثاني هو الأقرب للصحة . وعليه فما قيمة الاجماع - إن تم - مع علمنا بان هذا الأمر ليس من الدين ولم يشرعه الله على لسان نبيه ، على انا وجدنا في ابحاثنا السابقة ان البرهان الصحيح يقودنا الى الاعتراف بفساد هذا التشريع ، فنعلم بنتيجته ان النبي لم يشرعه لأمته ، فلا بد ان نتهم الاجماع المدعي باحدى التهم المتقدمة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، انا لا أدري ان هؤلاء الذين اقدموا على الاجتماع في السقيفة لعقد البيعة بدون مشورة من جميع الموجودين في المدينة وغيرهم على اي سناد استندوا وبأي حجة اجتمعوا والمفروض ان لا حجة إلا الاجماع ، وهو - على فرضه - بعد لم ينعقد على صحة عملهم ؟ فهذا العمل من اساسه كان بغير حجة قائمة ولا بينة واضحة ، ولذا قال عمر

لسعد بن عبادة : « اقتلوه قتله الله إنه صاحب فتنة » .

فلأي شيء استحق القتل ولم يكن يدعو إلا إلى نفسه كما دعا غيره ؟ ولماذا كان صاحب فتنة ؟ — ليس إلا لأن دعوته من غير حجة قائمة . وإذا كان قد ثبت من النبي صحة انعقاد الخلافـة باختيار أهل الحل والعقد . ويكتفي بمثل القول الذين اجتمعوا في السقيفة يومئذ فلم يكن قد دعا سعد إلا إلى ما هو مشروع لا يستحق عليه قتلاً ولا غضباً .

أما النص المروي : « الأئمة من قريش » فـلم يكن معروفاً عند المهاجرين يومئذ أو أنهم لم يريدوا أن يعرفوه ، ولذا لم يستدلوا به ذلك اليوم بناء على ما هو الصحيح وإنمـا استدل الخليفة أبو بكر بالقرابة من الرسول وان العرب لا تعرف هـذا الامر إلا لهذا الحي من قريش .

النص على ابي بكر

لم نتوقف فيما مضى للاعتقاد بأن الرسول ﷺ أوكل نصب الامام الى اختيار الامة ، او اهل الحل والعقد منهم خاصة .. وهنا نبحث عما إذا كان قـد عين شخص الامام بعده ، فمن هو هذا الإمام ؟

أصحيح انه هو (ابو بكر) ؟ يقطع الباحث ان الأحاديث المروية في النص عليه موضوعة إذا كان يفهم منها النص المدعى . وليس أدل على ذلك مما ثبت من تصريحاته نفسه ، ولا سيما عندما تمنى - قبيل موته - ان يسأل عن أشياء ثلاثة ترك السؤال عنها ، أحدها امر الخلافة انه فيمن حتى لا ننازع أهله . ثم من تصريحات خليفته عمر بن الخطاب لا سيما عندما دنت منه الوفاة فصرح ان النبي لم يستخلف. ثم من تصريحات عائشة «وهي المدافعة والمنافحة عن أبيها وقد قامت بقسط وافر من تأييده وتثبيت خلافته » فنفت الاستخلاف لما سئلت من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف[1] .

ويكفينا لعدم الوثوق بهذا النص المدعى أن نطلع على مجرى حادث السقيفة ، ونعرف استدلال من استدل على صحة بيعته بالاجماع أو لا

---

(١) ومن الغريب اعتذار ابن حزم : « ان هذا الأثر خفي على عمر كما خفي عليه كثير من أمر رسول الله (ص) كالاستيذان وغيره . أو انه أراد استخلافاً بعهد مكتوب ، ونحن نقر ان استخلافه لم يكن بعهد مكتوب . وأما الخبر في ذلك عن عائشة فكذلك أيضاً .. » ولئن خفي هذا الأمر على عمر وعائشة فعلى غيرهما أخفى وأخفى ، على ان جملة من هذه النصوص إنما تروي عن عائشة لا غير وأما إرادتها للعهد المكتوب فابعد وابعد .

تراه نفسه يوم السقيفة كيف قدم للبيعة عمر وأبا عبيدة ، فقال : « قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » أتراه كان لا يعلم بالنص عليه ، او كان عالماً به ولكنه اعرض عنه ؟ - لاشى منهما يصح أن يقال .

ولا شيء اوضح من خطبته يومئذ إذ يقول فيها : « ان العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش اوسط العرب داراً ونسباً » .

بل لو كان نص عليه لما كانت العرب تعرف هذا الأمر إلا لشخصه بنص صاحب الرسالة . وليس المقام مقام حياء من الدعوة إلى نفسه .

وعندي لا شيء اوضح من وضع الأحاديث في النص عليه . وأجد ان الذي ألجأ إلى وضعها ان من وضعوها وضعوها بعد ان ضاقوا ذرعاً بالاستدلال على خلافته بالاجماع ، مما وجدوه من مخالفة من خالف ممن لا يمكن إهمال شأنهم . وهذا هو التعصب الذي يحمل صاحبه على الكذب والاختراع ، فيقف حجر عثرة دون وصول طالب الحقيقة إلى هدفه ، ويجعل النفس لا تثق بكل ما يرويه هذا المتعصب فيما يخص معتقده ، بل في كل شيء .

* * *

أما قضية تقديمه للصلاة فإن صحت « وهي صحيحة بمعنى أنه صلى بالمسلمين» فليس فيها اية إشارة إلى تعيينه للخلافة ، فضلاً عن النص ، لأن الامامة في الصلاة ليست بالأمر الخطير الشأن الذي لا يكون إلا لمن له الإمامة ، ولا سيما على مذاهب أهل السنة ؛ وكان ائتمام المسلمين بعضهم ببعض مما اعتادوا عليه ، وشاع يومئذ بينهم بترغيب النبي فيه ، فقد ورد [1] ان أبا بكر صلى بالناس من دون إذن النبي ﷺ لما ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم .

ولا اعتقد بصحة ما يروى أن النبي هو الذي قدمه للصلاة وانه صلى أياماً ، لأن ابا بكر كان من جيش أسامة من غير شك — وسيأتي — وقد نهى النبي عن التخلف عنه ، وشدد في الاسراع بانفاذه فكيف يجتمع هذا مع تقديم النبي له للصلاة مدة مرضه .

نعم الثابت انه صلى صلاة واحدة وهي صلاة الغداة يوم الاثنين يوم وفاة النبي ﷺ وقبل ان يتمها خرج صاحب الرسالة يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض من الوجع ، فصلى بالناس صلاتهم وتأخر ابو بكر . فإن عائشة هي التي روت امر

---

(١) راجع صحيح البخاري ١ : ٨ .

النبي بتقديمه لا غيرها، وانها راجعته في ذلك حتى قال لها غاضباً: « انكن لأنتن صواحب يوسف » وهي نفسها تروي خروجه في نفس تلك الصلاة [1] . وكان خروجه بهذه الحال الى الصلاة يوم وفاته وهو يوم الاثنين .

ولو ان النبي كان قدمه للصلاة اشارة الى خلافته : فلماذا خرج بهذه الحال المؤلمة ؛ وصلى بالناس صلاة المضطرين جالساً ؟

ولا معنى لما يقال : « انه صلى ابو بكر بصلاة النبي وصلى الناس بصلاة ابي بكر » فمن هو الإمام إذن ؟ ان كان ابا بكر فلم يكن قد صلى بصلاة النبي ، وان كان النبي فلم تكن الناس قد صلت بصلاة ابي بكر، وتأويله – ان صح – ان النبي كان جالساً فلا يرون شخصه وكان مريضاً فلا يسمعون صوته ، فكانت الناس تعرف ركوعه وسجوده بصلاة ابي بكر الذي كان بازائه لما تأخر عن مقامه .

والاحاديث مضطربة في هذا الباب ؛ مع ان اكثرها عن عائشة ام المؤمنين واختلافها الجوهري في ستة امور :

---

(١) صحيح البخاري « ١ : ٧٨ و ٨٤ في حديثين » . وصحيح مسلم في باب استخلاف الامام إذا عرض له من كتاب الصلاة .

١ ـ « في علاقة عمر بالصلاة » فيذكر بعضها ان النبي قال : (مروا عمر) بعد مراجعة عائشة عن ابيها فأبى عمر وتقدم ابو بكر وبعضها ذكر انه ابتداء أمر عمر ، فقال عمر لبلال : قل له ان ابا بكر على الباب . وحينئذ امر ابا بكر . وبعضها ذكر انه اول من صلى عمر بغير إذن النبي فلما سمع صوته قال : « يأبى الله ذلك والمؤمنون » وفي بعضها انـه امر ابا بكر ان يصلي نفس الصلاة التي صلاها عمر بالناس ، وفي بعضها صلى عمر وكان ابو بكر غائباً . وفي بعضها ان النبي امر ابا بكر وابو بكر قال لعمر صل بالناس فامتنع .

٢ ـ « في من أمره النبي ليأمر ابا بكر » ، فبعضها تذكر عائشة ، وبعضها بلالا ، وبعضها عبدالله بن زمعة .

٣ ـ « فيمن راجعه في امر ابا بكر » ، فبعضها تذكر عائشة وحدها راجعته ثلاث مرات او اكثر ، وبعضها تذكر عائشة راجعته ثم قالت لحفصة فراجعته مرة أو مرتين ، فلما زجرها النبي قالت لعائشة : « ما كنت لأصيب منك خيراً » .

٤ ـ « في الصلاة المأمور بها » ، فبعضها يخصها بصلاة العصر وبعضها بصلاة العشاء ، والثالث بصلاة الصبح .

٥ ـ « في خروج النبي » ، فبعضها تذكر انه خرج وصلى ،

واخرى تقول اخرج رأسه من الستارة والناس خلف ابي بكر ثم القى الستارة ولم يصل معهم .

٦ – « في كيفية صلاة النبي بعد الخروج » ، فيذكر بعضها انه ائتم بأبي بكر بعد أن دفع في ظهره من التأخر . وبعضها ان أبا بكر تأخر وائتم بالنبي . وبعضها ان ابا بكر صلى بصلاة النبي والناس بصلاة ابي بكر وبعضها ان النبي ابتدأ بالقراءة من حيث انتهى ابو بكر .

٧ – « في جلوس النبي إلى جنب ابي بكر » ، فبعضها تذكر جلوسه إلى يساره ، وبعضها إلى يمينه .

٨ – « في مدة صلاة ابي بكر » ، فبعضها تجعلها طيلة مرض النبي ، واخرى تخصها بسبع عشرة صلاة ، وثالثة بثلاثة ايام ، ورابعة بستة ، ويظهر من بعضها انه صلى صلاة واحدة .

٩ – « في وقت خروج النبي إلى الصلاة » ، فبعضها صريحة في انه خرج لنفس الصلاة التي امر بها ابا بكر ، وبعضها صريحة في انه خرج لصلاة الظهر بعد صلاة ابي بكر اياماً ، وبعضها صريحة في خروجه لصلاة الصبح .

وهذه الاختلافات كما رأيت في جوهر الحادثة . ولم يظهر من الأخبار تعدد امر النبي له بالصلاة ولا تعدد خروجه . وهذا كله

يذهب بالاطمئنان بتصديقها في خصوصيات الحادثة لا سيما فيما يتعلق بأمر النبي له ، نعم يعلم منها شيء واحد على الاجمال هو صلاة ابي بكر بالناس قبل خروج النبي .

ولعل أبا بكر كان مخدوعاً في تبليغه امر النبي ، كما جاء في الحديث ان عبدالله بن زمعة خدع عمر بن الخطاب فبلغه أمر النبي له بالصلاة .

واحسب ان اصل الواقعة ان النبي ﷺ أمر الناس بالصلاة لما تعذر عليه الخروج من دون ان يخص احداً بالتقديم ، فتصرف متصرف وتأول متأول . ولما بلغ ذلك اسماع النبي التجأ ان يخرج يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض من الوجع ، فصلى بالناس جالساً صلاة المضطرين ، ليكشف للناس هذا التصرف الذي استبد به عليه .

واستغرب توبيخه لعائشة لما راجعته عن ابيها إذ قال لها : « انكن لأنتن صواحب يوسف » . لما هذا التوبيخ القارص ؟ وأي شيء صنعته تستحق به هذا اللوم ؟ لأنها ضنت على ابيها بهذه الكرامة ، فلئن لم تستحق المدح فعلى الأقل لا تستحق مثل هذا التوبيخ .

ومن هنا يتطرق الشك ايضاً في صحة تقديم النبي لأبي بكر ،

ويبدو أنه كان من امرها وتدبيرها ، فلذا وجهت اليها هذه الكلمة اللاذعة ، لا لمراجعة هناك . ولا شك انها ترغب لأبيها كل فضيلة وتلزه لزاً . ولذا التجأت ان تعتذر عن مراجعتها المستغربة منها التي ادعتها بأنها إنما كانت تحب ان يصرف عن ابيها لأنها رأت ان الناس لا يحبون رجلاً قام مقام النبي ابداً وانهم سيتشأمون به في كل حدث كان .

ألا تراها كيف بعثت إلى ابيها تدعوه لما بعث النبي إلى علي يدعوه ليوصيه ، وكذلك صنعت حفصة لأبيها ، ولكن النبي لما رآهم قد اجتمعوا أمرهم بالانصراف وقال : « فان تك لي حاجة ابعث اليكم » وهذا قول من عنده ضجر وغضب باطن .

والنتيجة : انه ليس هناك ما يستحق ان يسمى نصاً ، ولا إشارة إلى خلافة ابي بكر .

٨ ـ النص على علي بن ابي طالب

إذن ، أفصحيح ما تقوله الشيعة من النص على علي عليه السلام ؟ أيها القاريء ! بودي ان تكون حيادياً ، فلا تنظر إلى ما تقوله الشيعة عن هذا الرجل إلا بتقزز ، حتى لا اكلفك بالرجوع إلى كتبهم واخبارهم . وانا معك الآن سأطرحها جانباً . وما يدرينا

لعل حبهم وتعصبهم لصاحبهم يسوقانهم إلى القول عنه بما لم يكن ، كما ساق أهل السنة إلى رواية النص على ابي بكر. فلنأخذ حذرنا من الآن .

وبعد هذا أترانا نحذر من مؤلفات اهل السنة وصحاحهم في حق علي ، وهم ان تعصبوا فعليه ، لا له : كلا ! فان الكثير من محدثيهم يحذرون كل الحذر من رواة مدحه وفضائله ، فيقدح المؤلف منهم في الراوي الذي تشم منه رائحة الليل اليه ، ويرسلون الطعن في الحديث إرسالاً فيقولون : « وفي متنه غرابة شديدة » ، وليس إلا لأنه لا يتفق وعقيدته ويكفي في الثقة بالمحدث ان يكون ممن يميل عنه كأبي هريرة والمغيرة بن شعبة وعمران بن حطان وأمثالهم .

وقبل ذلك تجد سيوف بني امية مسلولة على رؤوس الرواة لئلا ينسبوا فضيلة لهذا الذي ناصبوه العداء سنوا سبه على المنابر والمعابر ، ونجدهم كيف كانوا يغدقون بالاعطيات على الطاعنين فيه والمنحرفين عنه .

ولذا تراني اطمئن كل الاطمئنان ـ وأنت معي لا شك ـ إلى كل حديث خلص من هذه العقبات ، واستطاع ان يطلع رأسه من بين الأحاديث ظافراً بالصحة والتأييد ، فسجلته كتب اهل

السنة وصحاحهم في فضل علي والنص على خلافته ، ومع هذا فستجدني لا اعتمد إلا على بعض الصحيح الثابت عند اهل الحديث منهم الذي بلغ حد التواتر او كالمتواتر .

والحق ان لعلي منزلة كبرى عند اخيه وابن عمه ، يغبطه عليها كل مسلم بل حسدوه عليها ، ولا ينكرها إلا مكابر ، حتى ان ام المؤمنين عائشة « على ما بينها وبين علي ما هو معروف » قالت فيه : « ما رأيت رجلاً أحب إلى رسول الله منه ولا رأيت امرأة كانت احب اليه من امرأته » .

وقد كان ﷺ يمجد ويرحب بصهره عند كل مناسبة من يوم ولد صهره قبل البعثة بعشر سنين إلى يوم فاضت نفسه الزكية في حجره . وهذا مما لا يشك فيه مسلم ، وإنما الشأن فيما يدل على العهد اليه بالخلافة فلنقرأ بعض الأحاديث الصحيحة المتواترة او المشهورة ، ولننظر ماذا سنفهم منها ؟

١ ـ لما نزلت الآية الكريمة : « وانذر عشيرتك الأقربين » جمع النبي عليه السلام من اهل بيته اربعين رجلاً في قصة معروفة ـ وكان ذلك في مبدأ البعثة ـ فعرض عليهم الاسلام وضمن لمن يؤازره وينصره منهم الاخوة له والوراثة والوزارة والوصاية والخلافة من بعده فأمسكوا كلهم إلا علياً فقد اجابه وحده ،

فأخذ برقبته ، وقال : « ان هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم ـ او من بعدي على اختلاف الروايات ـ فاسمعوا له وأطيعوا » . فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض استهزاء ، ويقولون لأبي طالب قد امرك ان تسمع وتطيع لهذا الغلام . يعنون ابنه [1] .

٢ ـ وفي غزوة الخندق لما برز علي إلى عمرو بن عبد ود ، قال ﷺ فيه : « برز الايمان كله إلى الشرك كله » . وذلك سنة ٥ هـ .

٣ـ وفي غزوة خيبر ، باهى به الذين تراجعوا بالراية فقال ، « إني دافع الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار » فتطاولوا لها ، ولكنه دفعها إلى علي، وذلك سنة ٧ هـ .

٤ ـ ولما آخى بين المهاجرين قبل الهجرة ، وبين المهاجرين والأنصار بعدها بخمسة أشهر ، اصطفى علياً لنفسه فآخاه ، وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي » . ثم لم يزل يكرر هذه الكلمة في مناسبات كثيرة، منها

---

(١) من الغريب ما صنعه الاستاذ محمد حسين هيكل . إذ يذكر هذه الحادثة في كتابه « حياة محمد » في الطبعة الأولى ويهملها في الطبعات الاخرى من غير تنبيه .

لما سد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب علي ومنها غزاة تبوك لما خلفه على المدينة سنة ٩ هـ . وفي رواية ابن عباس زيادة « انه لا ينبغي ان اذهب إلا وأنت خليفتي » [١] .

٥ ـ وقال له : «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». وبعد ذلك كان يعرف المنافق ببغضه لعلي .

٦ ـ وقال : «ان منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » . وبعد ان نفى ذلك عن ابي بكر وعمر قال : « ولكنه خاصف النعل » وكان علي يخصف نعل رسول الله ساعتئذ في الحجرة عند فاطمة .

٧ ـ وكان عند النبي طائر طبخ له ، فقال : « اللهم آتني بأحب الناس اليك يأكل معي » فجاء علي فأكل معه .

٨ ـ وقال : « انا مدينة العلم وعلي بابها » .

٩ ـ وقال : « اقضاكم علي » .

١٠ ـ وقال : « علي مع الحق والحق مع علي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » .

١١ ـ وأثبت له غير مرة الوراثة والوصاية، وأوضح انهما

---

(١) وصححها الحاكم في المستدرك والذهبي في تلخيصه .

وراثة ووصاية نبوة ، فقال مرة : « لكل نبي وصي ووارث وإن وصيي ووارثي علي بن ابي طالب »[٢] . وقال له علي مرة : « ما ارث منك » .

قال ﷺ : « ما ورث الأنبياء من قبل كتاب ربهم وسنة نبيهم »[١] .

١٢ ـ وقال سنة ٨ هـ . « إن علياً مني وأنا من علي لا يؤدي عني إلا أنا أو علي » .

١٣ ـ وقال : « إن علياً مني وأنا من علي ، وهو ولي كل مؤمن بعدي » .

١٤ ـ وقال : « أنت ولي كل مؤمن بعدي » .

١٥ ـ وسد أبواب المسجد غير باب علي ، فكان يدخل المسجد جنباً ، وهو طريقه ليس له طريق غيره . قال عمر بن الخطاب : « لقد اعطى علي بن ابي طالب ثلاثاً لئن تكن لي

---

(٢) راجع ميزان الاعتدال في ترجمة شريك . وقال عن رواية محمد بن حميد الرازي ليس بثقة . مع انه قد وثقه احمد بن حنبل وابو القاسم البغوي والطبري وابن معين وغيرهم . ونقل هذا الحديث عن السيوطي في اللآلىء وعن الحاكم .

(١) راجع كنز العمال « ٥ : ١٤ » .

واحدة منها احب إلي من حمر النعم : زوجته فاطمة بنت رسول الله ، وسكناه المسجد مع رسول الله يحل له ما يحل له فيه ، والراية يوم خيبر » . وكذلك روي عن ابن عمر . ولما روجع النبي في فتح باب علي قال : « إنما أنا عبد مأمور ما إمرت به فعلت إن اتبع إلا ما يوحى إلي » .

١٦ ـ ولما آخى النبي بين كل اثنين من المهاجرين ، وذلك قبل الهجرة ، اصطفاه لنفسه فآخاه وقال له فيما قال : « انت اخي ووارثي . انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي » . وكذلك صنع وقال لما آخى بين المهاجرين والأنصار ، فاصطفاه لنفسه مع ان كلا منهما من المهاجرين وذلك بعد الهجرة بخمسة اشهر . ولا يزال يدعوه اخي في مناسبات لا تحصى .

١٧ ـ ويوم الغدير ، بعد الرجوع من حجة الوداع سنة ١٠هـ امر بالصلاة ، فصلاها بهجير ، وقام خطيباً على مائة الف او يزيدون ، حيث تفترق قبائل العرب . وبعد أن نعى نفسه اليهم ذكر الثقلين كتاب الله وعترته وانهما لن يفترقا ولن يضلوا بالتمسك بهما ابداً ، واخذ بيد علي وقال :

أيها الناس ألست اولى منكم بأنفسكم ؟

قالوا بلى يا رسول الله . وكرر السؤال عليهم واجابوا .

ثم قال : فمن كنت مولاه فعلي مولاه ، وفي احاديث كثيرة : « من كنت مولاه فعلي وليه » . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيثما دار » فلقيه عمر بن الخطاب فقال له : هنيئاً يا بن ابي طالب اصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة » [1] او « اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة » [2] .

* * *

هذه هي الأحاديث التي أخذناها من الصحيحة ، إكتفاء بهذا القليل عن كثير لا تسعه هذه الرسالة . اما الآيات فقد قال ابن عباس : « نزلت في علي ثلثمائة آية من كتاب الله تعالى » . ولم يعرف من طريق أهل السنة إلا مائة آية . ونختار منها ثلاث آيات :

١ ـ آية « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » . وقد نزلت فيه إذ تصدق

---

(١) مسند احمد « ٤ : ٢٨١ » وعن تفسير الثعلبي ، وفي الصواعق المحرقة في الشبهة ١١ عن ابي بكر وعمر معاً .

(٢) تفسير الرازي في قوله تعالى : « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك ».

بخاتمه وهو راكـــع في الصلاة ، فاثبتت الولاية له كولاية الله ورسوله على الناس . وهي مثل الأحاديث التي جعلت له تلك الولاية الإلهية .

٢ ـ آية التطهير ، إذ جمع النبي ﷺ عليا وزوجته وابنيهما معه في كساء واحد،فنزلت الآية باذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم. وهذه العصمة التي تشترط في الامامة .

٣ ـ آية المباهلة ، إذ باهـل بأهل بيته اولئـكم ، نصارى نجران في قصة مشهورة ، وجعل علياً بنص الآية نفسه .

ونحن لما اعتقدنا ان طريقة الاختيار لا يصح ان يقال ان النبي عول عليها في تعيين الخليفة من بعده ، فمن الضروري ان ينص على واحد من اصحابه ، ولكن لم يكن ابا بكر فمن هو إذن ؟

ليس هناك شخص ورد فيه ما ورد في علي يصح ان يكون نصاً كهذه الأحاديث مع الآيات التي يؤيد بعضها بعضاً ويفسر بعضها بعضاً : فقد نصت على انـه ورث النبي وراثـة نبوة ، ووصيه ، واخوه ، ونفسه ، وولي المؤمنين بعده ، واولى بهم من انفسهم ، ومنزلته منه منزلة هارون من موسى عدا منزلةالنبوة ، وخليفته من بعده ، ويدور معه الحق كيفما دار لن يفترقا ، وهو

اقضى الامة ، وباب مدينة علمه ، المطهر من الرجس .

وهذه صفات لا تكون إلا لامام معصوم ، خليفة للنبي يختاره الله ورسوله للأمة . وهل يمكن ان يكون شخص اولى بالمؤمنين من أنفسهم ووليهم بعد النبي وهو سوقة كسائر الناس تجب عليه طاعة غيره والسمع له ؟ - هيهات !

ولكن كل واحدة من هذه الكلمات التمس لها بعض الباحثين في الامامة تأويلاً ، احتفاظاً بكرامة الصحابة واتقاء من نسبة مخالفة نص النبي اليهم . ونحن نقول لهؤلاء المؤولين : إذا كنتم قد عرفتم حسن نوايا هؤلاء الصحابة ، وهم في الوقت نفسه مجتهدون على رأيكم فلا استغراب في مخالفة الصريح من كلام النبي ﷺ وليس الخطأ على المجتهدين بعزيز . ثم إنا عرفنا عنهم عدم تعبدهم بالنصوص في كثير من الامور التي تفوت الحصر ، كتوقفهم في بعث جيش اسامة وتأميره حتى أغضبوا النبي فقال ما قال وبالأخير امتنعوا عن الخروج حتى قبض ، وكاعتراض عمر على صلح الحديبية ، وكمنعه من املاء الكتاب الذي قال عنه النبي لن تضلوا بعده ابداً . وما إلى ذلك .

فنحن الآن بين امرين : إما ان نؤول هذه الأحاديث بما يصح وبما لا يصح ، وإما ان نقول إن اولئك الصحابة قد تأولوها

لأمر ما . ولا شك ان الثاني اقرب إلى البحث العلمي والتفكير الحر المستقيم ، لانا وجدناهم قـد تأولوا في حيـاة النبي النصوص الصريحة التي لا تقبل التأويل كما سمعت بعضها . وهل لمن يحسن الظن بهم إلا ان يعتقد انهم لم يقصدوا مخالفة النبي عصياناً ، وإنما كانوا يظنون المصلحة فيما ينقدح لهم من رأي ، وقد اعتادوا ان يشاورهم في الامور اتباعاً لأمر الله تعالى «وشاورهم في الأمر» فانسوا التدخل حتى في الشؤون العامة التي يأمر بها النبي ويعقدها .

ومن جهة ثانية نرى امتناع دخول التأويلات التي تسمعها من الباحثين على بعض هذه الأحاديث . منها « حديث الغدير » وهو آخر النصوص ، وآية « إنمـا وليكم الله .. » وحديث « ولي كل مؤمن بعدي » فقد اوّلوا المولى والولي في كل ذلك بالنـاصر أو المحب .

وهذا بعيد كل البعد في حديث الغدير ، لأن اهـل اللغة ان فسرت المولى والولي بالناصر والمحب فقدفسروها بمالك التصرف. وهل تفهم معاني الألفاظ المشتركة إلا بقرائنها ؟ والقرينة الحالية واللفظية صريحة في هذا المعنى الأخير : فإن النبي قام خطيباً على مائة الف او يزيدون بحر الهجير ، وهل يصح عند العقل ان

يقف هذا الموقف الخطير وهو يريد ان يفهم الناس ان علياً ناصر للمؤمنين او محب لهم ؟ وأية حكمة في بيان هذا الأمر الواضح فتسترعي هذا الاهتمام من النبي الحكيم .

وايضاً ـ وبعد ان ينعى نفسه ويذكر الثقلين ـ يأخذ بيد علي ويرفعه اليه حتى يبين بياض ابطيهما ويستنشدهم : « ألست اولى منكم بأنفسكم » . فما هذه التوطئة ؟ اكانت كلاماً مطروحاً لا فائدة فيه ام انها لتوضح ما سيفرغ عليها فقال : « فمن كنت مولاه فعلي مولاه » ؟

لا شك انها قرينة لفظية صريحة في بيان ان علياً مثله اولى من المؤمنين بأنفسهم . والمولى كما قلنا هو « مالك التصرف » او « الأولى بالشيء منه » ، كما تقول : السيد مولى العبد ، اي مالك لتصرفه ، او انه اولى بالتصرف في شئونه منه .

ولا حاجة إلى دعوى ان المولى بمعنى كلمة « الأولى » فقط ، حتى يعترض عليها المعترض فيقول : لا يصح أن يقال « مولى منه » كما تقول « اولى منه » . بل ان معنى كلمة « المولى » معنى مجموع هذه العبارة « الأولى بالشيء منه » الذي يساوق معنى ما لك التصرف .

ومنها ـ وهو أول النصوص ـ الحديث : « ان هذا أخي

ووصيي وخليفتي فيكم ـ أو من بعدي ـ فاسمعوا له واطيعوا » .
وهو حديث ثابت لا شك فيه ، فهل تجد عبارة هي اصرح من هذه العباره للنص على الخليفة والامام ؟

ولو قرأنا نص أبي بكر على خليفته لم نر إلا عبارة « إني أمرت عليكم عمر بن الخطاب » . وهذه لا تشبه تلك في صراحتها ولا تقاس عليها في قياس ، فأين صراحة الامارة من صراحة الخلافة ؟ والامارة تكون في الجيش وتكون في كل شيء ، والخلافة لفظ كان يجري على لسان النبي والمسلمين ولا يراد منه إلا هذا المعنى ، فعندما تسمع قوله ﷺ : « هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثني عشر خليفة كلهم من قريش » لا نشك في المراد بكلمة « خليفة » كما لا نشك في كلمة « قريش » فلماذا لا نفهم من كلمة « خليفتي » هذا المعنى ؟ وهل استعملها في يوم من الأيام في معنى آخر ؟

والفرق بين نص النبي ونص أبي بكر أن أبا بكر لم يحدث بعده ما يأخذ بالاعناق الى التأويل والتشكيك ، لأنه قد عمل به وانتهى كل شيء . أما نص النبي فقد بقي قولاً في صدور الرجال وصحائف الكتب ولم يعمل به ، فسلبت صراحته وأدخل عليه التأويل احتياطاً في حمل الصحابة على احسن الاعمال .

ولئن درىء الطعن عنهم فلا يخلون عن الخطأ ، وما هو بعزيز على مثلهم .

على انا لا نريد ان ندخل في البحث عما يجب ان يقال في عذر الأصحاب ، وانما الغرض ان نفهم مدى دلالة هذا الحديث في نفسه قاطعين النظر عن كل ما صدر عن الأصحاب ، فلا نجد كلمة هي اوضح واصرح من كلمة « وصيي » وكلمة «خليفتي » ؛ ثم تعقيبها بالأمر بالسمع والطاعة .

وينسق عليه حديث رقم « ١١ » : « لكل نبي وصي ووارث وان وصيي ووارثي علي بن أبي طالب » . ويعلم من هذا بصراحة انها وصاية نبوة لا وصاية اعتيادية ، ووراثة نبوة على نسق الوصاية لا وراثة مال أو عقار ، فان علياً ابن عمه وابن العم لا يرث مع البنت ، ولا معنى لوراثة النبي لأنه نبى غير ان يكون بمنزلته في الولاية العامة ووجوب السمع والطاعة ، أما العلم فكل المسلمين ورثوه منه فلا اختصاص لعلي إلا ان يراد من العلم معنى آخر لا يشترك فيه الناس ، وهو الذي يكون من مختصات النبوة ، فيكون على المقصود ادل وأدل .

أما باقي الأحاديث فلو لم يكن كل واحد منها نصاً على امامته ، فعلى الأقل انها بمجموعها مع ما تقدم من النصوص

تكون نصاً لا يقبل الاحتمال والتأويل ، لا سيما بعد ان بينا فساد القول بتشريع ايكال الأمر إلى اختيار الأمة وقلنا انه لا بد ان يكون واحد من الاصحاب قد نص على خلافته النبي ﷺ .

لا تزال هناك شبهة مستعصية على الباحثين ، ولا يزال يكررها الكتاب حتى يومنا هذا . وهي : ان هذه الاحاديث لو كانت للنص على خلافته ، كما تقوله الشيعة ، فلماذا لم يتمسك بها هو ، ويحتج بها على القوم لوكانوا قد اخذوا حقه ؟ ولماذا لم يحتج بها أصحابه أو باقي المسلمين في اجتماع السقيفة ؟

والحق إنها شبهة قوية هي اقوى مستمسك لانكار النص ، بل ليس شيء غيرها يستحق أن يذكر في معارضة تلك النصوص ، فيلجىء إلى تأويلها وتفسيرها على غير وجهها . والباحثون أجابوا عنها بعدة امور يطول علينا استقصاؤها ، ولكن الذي يرضي نفسي وادين به ربي ان اقرر ما يلي :

ان مولانا امير المؤمنين لما انتهى الأمر بالناس إلى مبايعة ابي بكر خليفة ، فهو قد امسى بين امرين لا ثالث لهما : اما ان يستسلم للأمر الواقع ، فيترك كل مطالبة علنية صريحة ابقاء لكلمة الاسلام . واما ان يجاهد حتى يثبت حقه ، وهو نفسه قال : « وطفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على

طخية عمياء » . ولما اختار الامر الاول وهو اعرف بما اختار إذ يقول : « فرأيت ان الصبر على هـاتا احجى » فلم يبق وجـه لمطالبته العلنية بالخلافة ؛ وقد طوى عنها كشحاً واسدل دونها ثوباً . ولو انه كان يعلن بالمطالبة فلا بـد ان يتبعها بالسعي إلى تنفيذها مهما اوتي من حول وقوة ، وفي ذلـك تطويح بكلمة الاسلام وبنائه السامق . وسيأتي تمام البحث في الفصل الرابـع ، أما اصحابه فله تبـع ، وفي السقيفة قال الأنصار كلهم او بعضهم: «لا نبايـع إلا علياً» ولكنها كلمة ذهبت في فضاء التأريخ منسية وقد عالجناها في غير موضع من هذا الكتاب كما يأتي .

الفصل الثاني

تدبير النبي لمنع الخلاف

أ ـ بعث اسامة :

- ١ -

مرض النبي ﷺ مرضه الذي انتقل به إلى الرفيق الأعلى ، فوجس منه خيفة الفراق ، وهو يعلم ان امته على شفا جرف هار من بحر للفتن متلاطم ، والعرب مغلوبة على أمرها تحرق الارم عليه وعلى قومه واهل بيته ، وتنتهز الفرص للوثوب لأخذ ثأرها وهو على حذر منهم ، والمنافقون بالمرصاد بين ظهراني المسلمين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويعدون من أصحابه وهو على المسلمين منهم احذر ، وليس عهد دحرجة الدباب في العقبة ببعيد . واكثر من ذلك هذه الاخبار ترد بخروج الاسود العنسي ومسيلمة يدعيان النبوة فتتكاثر اتباعها .

ما أشد حال النبي وحزنه وهو يستدبر امة هذه حالها وهي تستقبل الفتن كقطع الليل المظلم كما في الحديث . وقد رأى مواقع

الفتن خلال بيوت المدينة كمواقع القطر في حديث آخر [١] .

ولكنه في هذا الموقف الدقيق مع ذلك يرمي بجيشه اللجب إلى مكان سحيق ، إذ يعقد اللواء بيده للشاب اسامة بن زيـــد أميراً على الجيش بعد يوم واحد من ابتداء شكاته ، بعد ان كان أمرهم بالبعث قبـل ابتداء مرضه . ثم يضم تحت لوائـــه شيوخ المهاجرين والأنصار وجلتهم ووجوههم منهم ابو بكر [١] وعمر ابن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وابو عبيدة وسعـــد بن ابي وقاص واسيد بن خضير وبشير بن سعـد وغيرهم ، ليحارب بهم اهل ابني بناحية البلقاء من ارض الشام اولئك قتلة ابي اسامـــة

(١) صحيح مسلم ٨ : ١٦٨ باب نزول الفتن .

(١) صرح بدخول ابي بكر في البعث اكثر المؤرخون ، منهم ابن سعد في طبقاته « ٤ : ٤٦ » و « ٤ : ١٣٦ » وابن عساكر في التهذيب « ٢ : ٣٩١ » و « ٣ : ٢١٥ » وصاحب كنز العمال « ٥ : ٣١٢ » . وصاحب تاريخ الخميس « ٢ : ١٧٢ » واليعقوبي في تاريخـــه « ٢ : ٩٣ » وابن ابي الحديد « ٢ : ٢١ » ومحمد حسين هيكل من المتأخرين في حياة محمد «٤٦٧» وغيرهم مما لا يحصى . ولم نجد تصريحاً ولا تلويحاً لأحد من المؤرخين بخروجه من جيش اسامة . وإنما يكتفي بعضهم بقوله : « وجوه المهاجرين » ومـــا يؤدي هذا المعنى بدون تصريح باسم احد ولكن بعض المؤلفين الجدليين حاول انكار دخوله من غير حجة ظاهرة .

زيد من الروم .

ثم يشدد في الخروج ويلعن المتخلف منهم ويغضب ذلك الغضب لتباطؤ القوم ولغطهم حول تأمير فتى يافع على شيوخ المسلمين ، فيقول : « ان تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة ابيه من قبل وايم الله ان كان لخليقاً للامارة وان ابنه من بعده لخليق للامارة » .

- ٢ -

لشد ما يعتلج العجب في نفوس المتفكرين من هذا الحادث . فيعجب الانسان .

اولاً : ان تسند قيادة اعظم جيش اسلامي يومئذ، في ذلك الظرف الدقيق الذي وصفناه ، في مرض النبي ، إلى شاب يافع لم يتجاوز العشرين من سنيه «على جميع التقادير» ، وهو لم يجرب الحروب بعد وبالأصح لم تسند اليه اية قيادة من هذا النوع ولا من نوع آخر . والجيش معبأ لجهاد أقوى اعداء الاسلام في ذلك الموقع البعيد عن العاصمة الاسلامية .

ثانياً : ان يؤمر هذا الفتى مع ذلك ، على شيوخ المسلمين الذين فيهم قواد الحروب ورؤساء القبائل واصحاب النبي الذين

يرون لأنفسهم مقامـاً اسمى ومنزلة رفيعة . ويرشحون انفسهم لمنصب هو اعظم كثيراً من منصب قائدهم الصغير هذا .

ثالثاً : ان يتباطأ المسلمون عن الالتحاق بهذا البعث بالرغم على اصرار النبي وتشديده النكير على المتخلفين ولعنـه اياهم . ويكفي ان نعرف ان البعث وقع قبيل شكاته او في اولها وقد استدامت علته اربعة عشر يوماً « على اوسط التقـادير » . وفي كل هذه المدة الطويلة يتثاقل القوم عن الخروج . وقـد عسكر قائدهم الفتى بالجرف ، وهو عن المدينة بفرسخ واحد « بعد ان عقد النبي له الراية بيـده الشريفة » ينتظر جيشه المتمرد يجتمـع اليه ، فتخلق الاشاعات عن حال النبي فيرجع اسامة إلى المدينة برايته فيركزها على باب النبي ، ولكن الرسول في كل مرة يأمره بالعودة ويحث القوم على الالتحاقَ به . ولكنه في اليوم الأخير يرجع مرتين ، في المرة الأولى يأمره النبي بالسير قائلاً : «اغد على بركة الله تعالى » فيودعه ويخرج ، وفي المرة الثانية يرجع ومعـه عمر وابو عبيدة فيجـد النبي يجود بنفسه ، ثم يلتحق بالرفيق الأعلى .

فماذا دهى المسلمين حتى خالفوا الصريح من امر النبي هـذه المدة الطويلة من غير حيـاء منه ولا خجل ولا خوف من الله

ورسوله وتوطنوا على غضبه ولعنهم جهاراً ، أتراهم استضعفوا النبي وهو مريض شاك فتمردوا عليه ، أم ماذا ؟

رابعاً : ان ينكر هؤلاء المسلمون على نبيهم تأميره لهذا الفتى ، ثم لا يرتدعون ان نهاهم عن ذلك ، وليس لهم على كل حال حق هذا الانكار إذا كانوا حقاً قد تغذوا بتعاليم الاسلام وعرفوا ان النبي لا ينطق عن الهوى وما كان لهم الخيرة .

خامساً : ان النبي قد علم بقرب اجله ويعلم ان الفتن قد اقبلت كقطع الليل المظلم،فكيف يبعد جيشه وقوته عن العاصمة ومركز الدعوة بل كيف يخلي المدينة من شيوخ المهاجرين والأنصار وزعمائهم واهل الحل والعقد منهم .

فلا بد ان يكون كل ذلك لأمر ما عظيم ، اكثر من هذه الظواهر التي يتصورها الناس .

- ٣ -

فهل نجد حلاً لهذه المشاكل تطمئن اليه النفس الحرة ، بعد عرفاننا للنبي وعظمته وانه لا يفعل ولا يقول إلا عن وحي وسر إلهي .

لم يصح عندنا تفسير لمشاكل هذا الحادث إلا بأن نقول

انه ﷺ اراد :

اولاً : ان يهيء المسلمين لقبول « قاعدة الكفاية » في ولاية امورهم ، من ناحية عملية ، فليست الشهرة ولا تقدم العمر هما الأساس لاستحقاق الامارة والولاية ، فلذا قال عن اسامة مؤكداً جدارته بالقسم ولام التأكيد : « وايم الله ان كان لخليقاً للامارة - يعني زيداً - وان ابنه لخليق للامارة » .

وإذا علمنا ان علي بن ابي طالب هو المهيأ لولاية امور المسلمين بعد النبي - على الاقل - ان فرض انه لم يكن هو المنصوص عليه ؛ أفلا يثبت لنا ان قضية اسامة كانت لقبول الناس امارة علي على صغر سنه يومئذ بالقياس إلى وجوه المسلمين وكان إذ ذاك لا يتجاوز الثلاثين ؟ وهذا ما يفسر به المشكل الأول والثاني في هذا البحث .

وثانياً - ان يبعد عن المدينة ساعة وفاته من يطمع في الخلافة خشية ان يزيحوها عن صاحبها الذي نصبه لها في الخلافة . وقد ثبت عنه انه كان يتوجس خيفة على اهل بيته ولا سيما على علي ، فوصفهم بأنهم المظلومون من بعده . ولذا نراه اوعب في هذا الجيش كل شخصية معروفة تتطاول إلى الرئاسة ، ولم يدخل فيه علياً ولا واحداً ممن يميل اليه الذين كانوا له بعد ذلك شيعة

ووافقوه على ترك البيعة لأبي بكر ، فلم يذكر واحداً منهم في البعث ، وهم ليسوا اولئك النكرات الذين لا يذكرون .

وهذا ما يفسر تباطؤ القوم عن البعث وعرقلتهم له بخلق الاشاعات في المعسكر عن وفاة الرسول ، مع اصراره ﷺ ذلك الاصرار العظيم . ولم يمكنهم ان يصرحوا بما في نفوسهم . فاعتذروا بصغر قائدهم؛ وفي هذا كل معنى التهجين لرأي النبي وعصيان امره الصريح .

فكان الغرض اخلاء المدينة من المزاحمين لعلي ليتم الأمر له ، بعد ان اتضح للنبي ان التصريحات بخلافته لا تكفي وحدها للعمل بها عندهم ، كما امتنعوا عن السير تحت لواء اسامة وهو لا يزال في قيد الحياة ، فقدر أن القوم إذا ذهبوا في بعثهم هذا يرجعون وقد تم كل شيء لخليفته المنصوب من قبله ، فليس يسعهم إلا أن ينضووا حينئذ تحت جماعة المسلمين ورايتهم .

و « ثالثاً » ـ ان يقلل من نزوع المتوثبين للخلافة ، ليقيم الحجة لهم وللناس بأن من يكون مأموراً طائعاً لشاب يافع ولا يصلح لامارة غزوة موقتة كيف يصلح لذلك الأمر العظيم وهو ولاية امور جميع المسلمين العامة وهي في مقام النبوة وصاحبها اولى بالمؤمنين من انفسهم .

وزبدة المحض ان بعث اسامة لا يصح ان يفسر إلا بأنـــه تدبير لاتمام امر علي بن ابي طالب بمقتضى الظروف المحيطة بـه من تقدم النص على علي وقرب أجل النبي ﷺ وعلمه بأن هناك من لا يروق له ولاية ابن عمه ، وبمقتضى الدلائل الموجـودة في الواقعة نفسها ، من تأمير فتى يافع وتكديس وجوه القوم وقوادهم في البعث وعدم دخول علي ومن يميل اليه وامتناع جماعـة عن الالتحاق بالجيش وحث النبي على تنفيذه وغضبه من اعتراضهم وتخلفهم ، وهو في مرض الفراق والظرف دقيق على المسلمين .

فهذا البعث في الوقت الذي كان تدبيراً لاخلاء المدينة لعلي وحزبه كان حجة على المستصغرين لسنه ودليلاً على عدم صـلاح غيره لهذا المنصب العظيم . فإذا كان الاخلاء لم يتم لتمانع القوم وعرقلتهم للبعث فإن الحجة ثابتة مع الدهر .

ولا يصح للباحث ان يدعي ان السبب الحقيقي لتخلف القوم هو ما تظاهروا به من عدم الرضى بامارة قائدهم الصغير ، وان تذرعوا به عذراً لاخفاء تلك الشنشنة التي عرفها النبي من اخزم لأنا نرى ان لو كان هذا هو السبب الحقيقي لما تنفذ البعث بعـد ان تم امر الخلافة الذي به زال المانع الحقيقي ، والمسلمون إلى النبي اطوع منهم إلى ابي بكر لو كان يمنعهم صغر القائـــد . ولم

يتأب عمر نفسه بعد ذلك ان يخاطب اسامة بالأمير طيلة حياته اعترافاً بامارته .

اما الشفقة على النبي ـ ان لم تكن عذراً آخر تذرعوا به ـ فلا يصح ان تكون سبباً حقيقياً ، إذ ينبغي ان يكونوا عليه اشفق بالتحاقهم بالبعث وقد غضب اشد الغضب من تأخرهم على ما فيه من حال ومرض . ولئن ذهبوا يسألون عنه الركبان كان اكثر براً بنبيهم من ان يعصوا امره ويغضبوه ذلك الغضب المؤلم له.

ولو ان القوم كانوا قد امتثلوا الأمر لأصابوا خيراً ولتبدل سير التأريخ ومجرى الحوادث تبدلا قد لا يحيط به حتى الخيال « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ولما وقع ما وقع بعد ذلك من خلاف بين المسلمين وتطاحن وحروب دموية انهكت قوى الاسلام واضعفت روحية الدين حتى انفصمت عرى الجامعة الاسلامية سريعاً وانتهكت حرمات الأحكام الدينية ، فعاد الاسلام كما نشاهد اليوم غريباً كما بدىء .

أي امر عظيم وتدبير حازم صنعه النبي لسد باب كل خلاف يحدث ؟ « وكل أفعاله عظيمة » لو تم ما اراد . ولكن لا امر لمن لا يطاع .

ب ـ أنتوني بكتف ودواة :

قد شاهد النبي ﷺ ما كان من امر عرقلة بعث اسامة ، وهؤلاء القوم المتباطئون لم ينفع معه صعوده المنبر عاصباً رأسه في اشد حال لا تقله رجلاه مما به من لغوب ، مشدداً عليهم النكير على مقالتهم في حق اسامة وتخلفهم عن البعث .

وهي اول حادثة من نوعها تمر على النبي في المدينة ، لا يطاع امره ويتجاهل حكمه ، ويتساهل في غضبه ، ثم لا يستطيع ان ينفذ هذا الأمر وهو مصر على تنفيذه إلى آخر يوم من حياته إذ دخل عليه اسامة راجعاً من الجرف فأمره بالمسير غادياً .

لا شك ان مثل هذا الحادث يدعو إلى تدبير آخر سريع لاتمام الأمر لعلي ،ومنه تتأكد للنبي جلياً ما عليه القوم من التواطؤ على عدم التقيد بالنص على علي . وهم إذا كانوا في حياته لا يطيعون امره في هذا السبيل فكيف إذن بعد وفاته ؟ فلم يجد هذا خيراً من ان يكتب لهم كتاباً فاصلاً لا يضلون بعده ابداً لأنه سيكون امراً ثابتاً لا يقبل التأويل والنكران والتناسي ، لا كالكلام الذي لايحفظ إلا في الصدور وهي لا تسلم من دخل.

ما اعظمه من كتاب :

أهم لا يضلون بعده ابداً ؟

ما اعظمها من نعمة !

بالله أهكذا قال النبي ؟

نعم ! لما اشتد المرض به « يوم الخميس » وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، قال ﷺ : «هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابداً » .

فأية فرصة غالية هذه يجب ان يقتنصها الحاضرون لهم ولجيلهم وللأجيال اللاحقة حتى الأبد ؟ وأية نعمة كبرى هذه لا تعادلها نعمة ! .. أما كان على المسلمين ان يستغلوها اعظم غنيمة فيسرعوا إلى تلبية هذا الطلب ليخلد لهم الهدى ما بقوا ؟ فأي شيء كان يؤخرهم عن اقتناص هذه النعمة ؟

أو لس عمر بن الخطاب حال دون هذا التدبير ، فأوهى منه عقدته المحكمة ، فقال : « ان رسول الله قد غلبه الوجع - أو ليهجر - وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله » ! . فاختلف الحضور واكثروا اللغط والنقاش منهم من يقول قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر .

فما ترى نبي الرحمة صانعاً بعد هذا ؟ أيكتب الكتاب وهو في زعم بعضهم على حال مرض غالب « حاشا النبي الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلاوحي يوحى » ، فكيف إذن يهتدون

به ولا يضلون بعده ابدا ، وقد وقع فيه الخـــلاف من الآن ، وطعن بتلك الطعنة النجلاء التي لا سبر لها ولا غور . فلم يجـد روحي فداه إلا أن ينهرهم وينبههم على خطأهم فقال : « قوموا. ولا ينبغي عند نبي نزاع » لتبقى هذه الحادثة حجـة على مرور القرون .

حقاً انها لرزية من اعظم الرزايا سببت كل ضلال وقع ويقع بعد النبي . وحق لابن عباس حبر الامة أن يبكى عند تذكرها حتى يخضب دمعه الحصباء ويقول « ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب » .

وليفكر المفكر اي شيء كان يدعو عمر ليقول هـذه المقالة القارصة في حق النبي المختار ، وما ضره لو كان يكتب هـــذا الكتاب ليعصم الخلق من الضلالة ابد الدهور وسجيس الليالي ؟

أكان لا يحب أن يبقى الخلق على هدى لا يضلون ؟

أم كان يعتقد حقيقة ان النبي ليهجر . ولكن لا يعتقد هذا الاعتقاد إلا من كان يجهل حقيقة النبي وما جاء بـه القرآن من الآيات التي ندد بها على المشركين . وليس ذلك عمر . وما باله لم يعتقد بهجر ابي بكر « وليس شأنه شأن النبي » لمـا أوصى بالخلافة ، وكان قد اغمي عليه اثناء تحرير الاستخلاف فأتم ذلك

عثمان بالنص على عمر من دون علم ابي بكر ، خشية ان يدركه الموت قبل الوصية ، فأمضى ما كتبه عثمان لما استفاق .

أم ماذا ؟

ليتني استطيع ان افهم غير انه علم بما سيكتبه النبي من النص على علي ، وقد سبق للنبي انعبر مثل هذا التعبير في العترة يوم الغدير إذ ذكر الثقلين « كتاب الله وعترته اهل بيته » ووصفهما بأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، ثم قال : « لن تضلوا ان اتبعتموها »[1] أو على المشهور « لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما ابدا » ففهم عمر من قوله : « لا تضلوا بعده ابداً » ماذا سيريد ان يكتب الرسول . ويشهد لتنبه عمر لذلك قوله : « حسبنا كتاب الله » إذ فهم ان غرض النبي ان يقرن الثقلين احدهما بالآخر فكأنه قال : يكفينا واحد منهما وهو الكتاب ولا حاجة لنا بالآخر ، وإلا فما كان معنى لقوله حسبنا ... وهو يدعى هجر النبي ﷺ .

فكانت هذه المقالة من عمر والقالة بمشهد النبي للحيلولة دون الكتاب لعلي ، اقداماً جريئاً جاء في وقته المناسب له قبل

(١) مستدرك الحاكم « ٣ : ١٠٦ » .

ان تفوت الفرصة . ولا يشبهه اي موقف آخر منه على كثرة مواقفه في سبيل اتمام البيعة لأبي بكر ، كما سترى في انكاره موت النبي وموقفه في السقيفة وبعدها فانه هو الذي شيد [١] بيعة ابي بكر وكافح المخالفين . ولولاه لم يثبت لأبي بكر امر ولا قامت له قائمة : فقد كسر سيف الزبير ، ودفع في صدر المقداد ، ووطأ سعد بن عبادة وقال : اقتلوه فإنه صاحب فتنة وحطم انف الحباب بن المنذر ، وتوعد من لجأ إلى بيت فاطمة عليها السلام وكان بيده عسيب نخل [٢] بعد خروجهم من السقيفة يدعو الناس إلى البيعة .

ولا يستطيع الباحث ان ينكر من عمر بن الخطاب تمالؤه على علي بن ابي طالب ويقظته فيما يخص استخلافه . وكذلك جماعته الذين شاهدنا منهم التعاضد والتكاتف في اكثر الحوادث كأبي بكر وأبي عبيدة وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل واضرابهم . وكذا على نفسه ظاهر عليه جلياً ميله عن هؤلاء في جميع مواقفه معهم حتى انه لم يبايع ابا بكر حتى ماتت فاطمة فبايع مقهوراً ، ولم يدخل في حرب قط على عهد الخلفاء الثلاثة ،

---

(١) راجع شرح ابن ابي الحديد « ١ : ٥٨ » .

(٢) راجع كنز العمال « ج ٣ رقم ٢٣٤٦ ، ٢٣٦٣ » .

وهو ابن بجدتها وقطب رحاها . وكان يتهم عمر انه لم يشدازر ابي بكر إلا ليجعلها له بعده فقال له مرة : « احلب حلباً لك شطره اشدد له اليوم أمره ليرده عليك غدا » [1] وقد صدقت فيه مقالته فأستخلف من قبل ابي بكر .

وهل يخفى على احد ما كان في القلوب من تنافر ؟ ويكفي شاهداً ان نسمع المحاورة التي دارت بين عمر بن الخطاب وابن عباس كما رواها ابن عباس [2] .

عمر « لابن عباس » : اتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد ؟

ابن عباس : « وهو يكره ان يجيبه » ان لم اكن ادري فأمير المؤمنين يدريني .

— : كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً ، فاختارت قريش لأنفسها .

— : فأصابت ووفقت يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في الكلام وتمط عني الغضب تكلمت .

---

(١) السياسة والامامة : باب امامة ابي بكر . وشرح النهج «٢ : ٥» .

(٢) الطبري «٥ : ٣١» وابن الاثير «٣ : ٣١» وشرح النهج «٢ : ١٨» .

— : تكلم :
— : أما قولك : « اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت » فلو ان قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ومحسود . وأما قولك : « انهم كرهوا ان تكون لنا النبوة والخلافة » فإن الله عز وجل وصف قوماً بالكراهية فقال : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .
— : هيهات ! والله يا بن عباس قد كانت تبلغني عنك اشياء كنت اكره ان اخبرك عنها فتزيل منزلتك مني .
— : وما هي ؟ فان كانت حقاً فما ينبغي ان تزيل منزلتي منك وان كانت باطلاً فمثلي اماط الباطل عن نفسه .
— : بلغني انك تقول انما صرفوها حسداً وظلماً .
— : اما قولك : ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم . واما قولك « حسداً » فإن إبليس حسد آدم فنحن

ولده المحسودون .

— : هيهات ! ابت ـ والله ـ قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول وضغناً ـ وغشاماً يزول .

— : مهلاً ! لا تصف قلوب قـــوم اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا بالحســد والغش ، فإن قلب رسول الله من بني هاشم .

— : اليك عني ؟

* * *

نقلنا هذه المحاورة بطولها لانها تجلي كثيراً من الغـوامض في بحثنا ، فهي تكشف لنا :

«أولاً» ـ عما في نفوس الطرفين من نزوان بغضاء كامنة يستطير شرارها . وهذا ما أردنا استكشافه الآن وسقنا لأجله المحاورة .

و« ثانياً » ـ عن ان القوم كانوا قد تعمدوا منع الأمر عن آل البيت، وانمنعهم كان عاطفياً كراهة اجتماع النبوة والخلافة فيهم خشية تبجحهم ، وقد فسر ابن عباس هذه الخشية بالحسد وانها من الظلم . واستشعر الألم الكامن من تأكيـــد هذه الكلمة

« بجحاً بجحاً » .

و« ثالثاً » ـ عن ان الامامة انما هي باختيار الله ، وان الخلافة في آل البيت مما انزله الله ، وليست تابعة لاختيار قريش وكراهتهم .

و « رابعاً » ـ عن ان ظلمهم لآل البيت بأخذها منهم مشهور يعرفه كل احد .

وهذان الأمران الأخيران صرح بهما ابن عباس على شدة تحفظه واتقائه غضب عمر الذي لم يسلم منه بالأخير . ولم يرد عليه عمر الرد الذي يكذب هذا التصريح اكثر من الطعن فيه وفي بني هاشم ثم الزجر له بقوله : « اليك عني » . وهذا الزجر ينطق صريحاً بالعجز عن الجواب ، فختمت به المحاورة .

والغرض من كل ذلك ان اقدام عمر الجريء ، على نسبة اهجر إلى النبي المعصوم ، وعلى دعوى ان كتاب الله وحده كاف للناس بلا حاجة إلى شيء آخر على عكس تصريح النبي ، لا يستغرب منه ما دام القصد منع الأمر عن علي . وقد اتضح ان بينهما ما لا يستطيع التأريخ نكرانه والتمويه فيه .

واما اعتذار بعض الناس عنه بأنه ظهر له ان الأمر ليس

للوجوب فهو اعتذار بارد لا يقره العلم . فمن اين ظهر ذلك ؟ أمن قول النبي « لا تضلوا بعده ابداً » وهل هناك امر اعظم مصلحة في الحكم الشرعي تجعله للوجوب من هداية الخلق اجمعين إلى ابد الدهور ـ ام من وقوع النزاع وغضب النبي وزجرهم بالانصراف. وإذا كان قد فهم الاستحباب فلماذا يرده بأشنع كلمة لا يواجه بمثلها الرجل العادي من الناس لا سيما عند المرض ، اعني كلمة الهجر والهذيان ، مهما لطفت العبارة بتحويلها إلى كلمة « قد غلبه الوجع » . ثم أي معنى حينئذ لقوله : « حسبنا كتاب الله » ، وهو رد على النبي وتدخل في مصلحة الحكم واساسه ، وكان يغنيه ان يقول لا يجب علينا إمتثال الأمر .

* * *

والخلاصة ان الكتاب الذي اراد ان يكتب النبي صلى الله عليه وآله من نفس وصفه له : « لا تضلوا بعده أبداً » ومن نفس رد عمر « حسبنا كتاب الله » ومن قرائن الأحوال المحيطة بالقصة بعد سبق توقف البعث عن الذهاب نعرف ان المقصود منه النص على خليفته من بعده وهو علي بن ابي طالب ، لا سيما ان كل خلاف بين المسلمين و كل ضلال وقع ويقع في الامة هو ناشيء من الخلاف

في امر الخلافة فهو اس كل ضلالة . ولو تركوا النبي يكتب التصريح بالخلافة من بعده لما كان مجال للشك والخلاف إلا بالخروج رأساً عن الاسلام .

وليس بالبعيد انه ﷺ امتنع عن التصريح شفاهاً أو كتباً بعد هذه القصة بالنص على خليفته لئلا يأخذ اللجاج بالبعض إلى الخروج على الاسلام ، فتكون المصيبة اعظم على الاسلام والمسلمين وهذا ما حدا بعلي عليه السلام إلى المجاراة والمماشاة ، فلذا قال في خطبته الشقشقية « فطفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على طخية عمياء ... فرأيت ان الصبر على هاتا احجى .. » وسيأتي في الفصل الرابع الكلام عن موقفه مع الخلفاء تفصيلا .



الفصل الثالث :

بيعة السقيفة

١ - الدوافع لاجتماع السقيفة *

تصور الأنصار انهم الذين آووا ونصروا يوم عـز الناصر ، واسلموا يوم قحط المسلمين ، فبذلوا للاسلام نفوسهم واموالهم ، فكانوا بحق « انصاراً » كاسماهم النبي ﷺ ، و« حضنة الاسلام واعضاد الملة » كما دعتهم الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة عند مطالبتها بالنحلة .

إذن لا بد أن يروا لأنفسهم حقاً في الاسلام لا يغمط وسابقة ليست لغيرهم لا تنكر ، ولهم في تشييده يد مشهورة وذكر جميل

(*) السقيفة ؟ الصفة والظلة ، وهي شبه البهو الواسع الطويل السقف . وكان لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج - وهم حي من الانصار ومنهم سعد بن عبادة نقيبهم والرئيس الخزرج - ظلة يجلسون تحتها هي دار ندوتهم لفصل القضايا ، اشتهرت « بسقيفة بني ساعدة » . اجتمع فيها الأنصار أوسهم وخزرجهم ليبايعوا سعد بن عبادة خليفة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذا ما يطمعهم في امارة المسلمين كجزاء لتضحيتهم في سبيل الاسلام وكنتيجة لنجاحهم وتفوقهم على العرب في النصرة والايواء .

ومن جهة ثانية : انهم كانوا قد وتروا قريشاً والعرب ، وأية ترة هي؟آووا ونصروا من سفه احلامهم،وهم يحرقون الإرم عليه ليقتلوه ، فتدنع عن جبروتهم باولئك المستضعفين في نظر « أهل النواضح » واكثر من ذلك انهم قتلوا صناديدهم واسروا رجالهم وجعجعوا بهم حتى دانت بأسيافهم العرب . فكانت الانصار ـ والحال هذه ـ تتخوف هؤلاء الذين وتروهم إذا خلصت اليهم الامارة ان يأخذوهم بترتهم ، وهم عندئـــذ المغلوبون على أمرهم سوقـــة لا يملكون لأنفسهم قوة ولا دفاعا ، وكفاهم ما سمعوه من النبي ﷺ مخاطبا لهم : « ستلقون بعـــدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » والمنـــاظرة التي وقعت يوم السقيفة كانت تشير إلى تخوفهم هذا بل صرح الحباب بن المنذر إذ يقول : « ولكنا نخاف ان يليها بعدكم من قتلنا ابناءهم وآباءهم واخوانهم » . وقد صدقت فراسته فتولى الأمر بنو امية وكان ما كان منهم في وقفة « الحرة » المخزية التي يندى منها جبين الشرف والانسانية ، ويبرأ منها الاسلام وأهله .

وشيء ثالث هناك : إذا كان صاحب هذا الأمر هو علي بن ابن ابي طالب ،فلم يخف عليهم حسد العرب له وتمالؤها عليه ،وهي موتورة له اكثر من اي شخص آخر من المسلمين بعد النبي ، فلا تمكنه العرب ـ قريش خاصة ـ من امورهم . وليس بعيداً عهد تأخر جيش اسامة والحيلولة دون كتاب النبي . ولا بد انهم علموا بمؤامرات هناك وتفكيرات احسوها عيانا في جماعة من الناس . فالانصار ـ والحال هذه ـ قد لا يرون كبير إثم في تطاولهم لمنصب الخلافة ، ما دامت خارجة عن معدنها ، ولا يأمنون ان يتولاها من لا يحمدون مغبة امره ، ولا يجدون غيرهم ممن يتطاولون لها اولى بها في نصرة وخدمة وتضحية ، ولعلهم لأجل هذا لما يئسوا من الأمر بعد محاولتهم الفاشلة ورأوه قد خرج من ايديهم ايضاًقال كلهم او بعضهم: «لا نبايع إلا علياً»[1] ولكن بعد خراب البصرة .

هذه اسباب قد تقنع النفوس الاعتيادية على تنفيذ رغباتها . وتحملها على الاعتقاد بصحة ما توحي اليها اهواؤها بقصد او بغير قصد من جراء تأثير العاطفة ، فتعمى العين عن اوضح ما يقوم في طريقها من نور للحق ودليل على فساد ايحاء النفس بنزعاتها

(١) الطبري « ٣ : ١٩٨ » وابن الاثير « ٢ : ١٥٧ » وغيرهما .

وهذا ما يؤيده علم النفس .

وإذا نحن تفهمنا هذه الحقائق وتدبرناها جيداً استطعنا ان نعرف السر في استباق الأنصار ـ بهذه العجالة ـ إلى عقد اجتماعهم سراً في سقيفتهم واستطعنا أن نعرف لماذا كان سرياً بلا مشورة للمهاجرين ولا باقي المسلمين .

احلي : ما هو إلا لانهم طلبوا الفرة من اصحاب الرسول واهل بيته فانتهزوا فرصة انشغالهم بفادحهم العظيم وبجهازهم نبيهم ليحكموا البيعة لاحد نقبائهم وسيد الخزرج ، او لأي شخص آخر منهم قبل ان يفرغ اهلهاو طالبوها . وحينئذظنوا ان سيتم لهم كل شيء .

٢ ـ نفسية الانصار :

حاولنا في البحث السابق ان نتشبث بما يرفع الانصار عن سوء النية والقصد ، ولكنا نؤمن بأن ما قلنا عنهم لا يخرج عن عده من الوساوس التي لا تبرر عمل المرء من الناحية الدينية . على انا نرجو ان يكونوا معذورين فيما عملوا لئلا نخسر عدداً وفيراً من الصحابة .

اما نفس عملهم ـ سواء كانوا بسوء نية ام لا ـ فلا يسعنا ان

نحكم بصحته ، فانا مهما فرضنا الحقيقة من جهه النص على الامام فإن استبدادهم هذا وتسرعهم في عقد اجتماعهم لنصب خليفة منهم لا يخرج عن عده خيانة للاسلام، وتفريطاً في حقوق المسلمين بلا مبرر ، في وقت قد دهمت الاسلام فيه هذه الفاجعة الدهياء ، والمسلمون كالمذهولين بمصابهم لا يعلمون ماذا سيلاقون من العرب واعداء الاسلام .

ولا نريد الآن ان نجلس في دست القضاء لنحكم لهم او عليهم ولعل هناك من يرى صحة عملهم فلا نضايقه . وإنما مهمتنا ان ندرس الأسباب التي دعتهم إلى عملهم هذا، وأن ندرس نفسياتهم.

في البحث السابق رأينا ان خدمتهم للاسلام الممتازة هي التي خيلت لهم الحق في الخلافة او في سلطان المسلمين . وهذا نعرفه من حجتهم على لسان المرشح منهم للخلافة - سعد بن عبادة - في خطبته ذلك اليوم ينضم إلى ذلك تخوفهم من ان يخلص الأمر إلى من قتلوا ابناءهم وآباءهم واخوانهم ، مع اعتقادهم بخروج الأمر عن اهله ، ويدل على هذا الأخير - كما تقدم - طلبهم مبايعة علي بعد اليأس .

هذه الاسباب التي استطعنا عرفانها . وكل ذلك تقدم ، وفيها قبس نسير على ضوئه لمعرفة نفسياتهم .

فانا نعرف من مجموعهـا انهم في محاولتهم كانوا مدافعين أكثر منهم مهاجمين ، والدفـاع دائمـاً يكون عن الشعور بالضعف والانخذال وهذا الشعور من اعظم الأدواء النفسية لمن اراد الظفر في الحياة ، إذ ينشأ منـه الوهن في العزيمة والضعف في الارادة والاضطراب في الرأي والتدبير . وكل ذلـك كان ظاهراً على الانصار في اجتماعهم بالسقيفة .

والشاهد على ذلك : انقسامهم على انفسهم وانسحابهم امـام خصومهم كما سترى ، واعظم من ذلـك تنازلهم إلى الشركة في الأمر من قبل ان ينازعهم منازع ، اعني قبل مجيء جماعـة من المهاجرين اليهم ، إذ قال قائلهم : « فانا نقول إذن – اي عندما ينازعوننا – منا امير ومنكم امير ،ولن نرضى بدون هذا أبداً» ، فقال لهم سعد : « هذا اول الوهن » . والحق انـه اول الوهن وآخره . ثم يستمر معهم هذا التنازل حتى بعد مجيء المهاجرين فكرروا هذه الكلمة بالرغم على تنبيه سعد لهم انها من الوهن .

وهذا يكشف – ايضاً – عن سماحـة في نفوسهم ولين في طباعهم ، ويصدق ما قلناه انهم مدافعون اكثر منهم مهاجمين ، فلم يطلبوا الامارة ليملكوا مقدرات الامة وشؤونها بل ليدفعوا ضرر من يخافون ضرره . فاكتفوا بالشركة التي يحصل بها الغرض

من الدفاع .

والانصاف ان الأنصار لا ينكر ما هم عليه من الاستكانة واستخذاء وقصر في الرأي والتدبير ، وضعف في العزائم ، وسيما امام دهاء قريش وقوتها ، وان حاول بعضهم – وهو الحباب بن المنذر – ان يستر هذا الضعف . إذ قال في خطابه ذلك اليوم : « يا معشر الأنصار املكوا عليكم امركم فان الناس في فيئكم وفي ظلكم ولن يجترىء على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . انتم اهل العز والثروة .. » . فاطرد خطبته على هذا الاسلوب زاعماً انه سيرفع من منعتهم وبأسهم ويسد خللهم. ونهاهم عن الاختلاف وحذرهم عواقبه حتى قال : « فان ابى هؤلاء فمنكم امير ومنهم أمير » . ولكنه – كما ترى – بينما هو محلق في السماء رفعة وتعاظماً ويملي ارادته قوة إذا به يهبط إلى الحضيض ضعفاً ، إذ يقول : «فان أبى هؤلاء » ونقول له : فان أبى هؤلاء الشركة أيضاً فما انتم صانعون؟لا شك ان ذلك الضعف الذي يملي عليه التنازل هو ذلك الضعف عينه موجود ايضاً سيملي عليه التنازل عن جميع الامر ، كما وقع .

وهذا من تنازل الحائر المغلوب على امره وتدبيره . وكانت عليه بذلك الحجة الظاهرة ، فقال له عمر بن الخطاب : « هيهات

لا يجتمع إثنان في قرن » او ما ينسق على هـذا المعنى ، على ان الحباب هذا من أقوى من وجدنا يومئذ واشجعهم قلباً وأجرأهم لساناً ، واغلظهم على المهاجرين ، لولا سعد بن عبادة .

إلى هنا لعلنا لمسنا شيئاً من نفسية الأنصار وادركنا مقدار الضعف في نفوسهم ، والوهـــن في عزائمهم ، والاضطراب في تدبيرهم. كيف وقد تجلى ذلك في الحباب لسانهم المفوه وخطيبهم المصقع ذلك اليوم ، وهو اقوى شكيمة واكثرهم إعتداداً بنفسه وقومه ، وكان يدعى بينهم « ذا الرأي » .

بقي علينا ان ندرك لمـــاذا كل هذا الحذر من الحباب من اختلافهم إذ يقول : « ولا تختلفوا فيفسد عليـكم رأيكم وينتقض عليكم امركم » ؟ لا بـــد انه كان يحس بشرارة الخلاف تقدح ، ويتوجس خيفة من الانتقاض وهذا ما سنبحث عنه في الآتي .

٣ ـ الانصار حزبان :

إذا قيل الأنصار أرادوا البيعة لسعد ، فأنما هم الخزرج فقط دون الأوس [١] . وإذا كان الأوس أجتمعوا في السقيفة مـــع

---

(١) ولذا يقول المؤرخون عند ذكرهم لبيعـــة الاوس : « فانكسر على الخزرج ما كانوا اجمعوا عليه » .

الخزرج فإنما هو على ظاهر حـــال ، ولحسّ مشترك بالخوف ممن قتلوا آباءهم وابناءهم ان ينالوا الامارة ، وهم يبطنون في نفس الوقت للخزرج كمين احن تتغلغل في صدورهم ، فان بين الحيين دماء مطلولة مـا زال نضخها على سيوفهم وجروحاً بالغة لا يلأم صدعها ولا يرجى رأبها . وكان آخر ايام حروبهم يوم (بعاث) المشهور وهو قبل الهجرة بست سنين ، وهو سبب اسلامهم — على ما قيل — إذ جاء احـــد القبيلين بعد يوم بعاث إلى مكة يستنجد قريشاً على الفريق الثاني ، فالتقوا بالنبي ﷺ وهداهم الله تعالى إلى الاسلام .

وكان رئيس الاوس يوم بعاث حضير الكتائب ابو اسيد بن حضير هذا الذي افسد الأمر على سعـد وبايع أبا بكر ومعـه الاوس . وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان ، ابو النعمان صاحب راية المسلمين يوم أحد [١] .

ولم يلطف الاسلام كثيراً من تنافسهم وتحاسدهم ، وان اطفأ بينهم نار الحروب ، فقـد كانا يتصاولان تصاول الفحلين . لا تصنع الاوس شيئاً إلا قالت الخزرج نفاسة : لا يذهبون بهـذا

---

(١) راجع العقد الفريد « ٢ : ٢٥ » .

فضلاً علينا . فلا ينتهون حتى يوقعوا مثله . وكذلك إذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الاوس مقالتهم وصنعت صنعهم (١) .

ومن منافساتهم التي بلغت حد الافراط يوم استعذر رسول الله من عبد الله بن ابي سلول المنافق الشهير وهو من الخزرج فقال: « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه اذاه في اهلي » . إلى آخر ما قال ، فقام سعد بن معاذ رئيس الاوس فقال : « يا رسول الله إنا والله اعذرك منه ان كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه امرك » فترى سعداً كيف تجاهل الشخص المعنى وتحفظ عند ذكر الخزرج مما يدل على شديد تنافسهم فقام سعد بن عبادة سيد الخزرج فقال معاذ لابن معاذ : « كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك لما أحببت ان يقتل » . فقام اسيد بن حضير ابن عم سعد بن معاذ فقال لابن عبادة : « كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل من المنافقين » . فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت (٢) .

(١) الطبري « ٣ : ٧ » وابن الاثير « ٢ : ٦٦ » .

(٢) راجع البخاري « ٢ : ٦٦ و ٣ : ٣٤ » .

هكذا هم الاوس والخزرج حزبان متنافسان متحاسدان وإنما سعد بن عبادة بادىء بدء ـ يوم السقيفة ـ أراد ان يستميل الاوس باسم الأنصار ؛ وهم حزب واحد امام حزب المهاجرين وقريش فقال ـ معرضاً بخصومهم في خطبته على الأنصار ـ : « يا معشر الأنصار ان لكم سابقة في الدين وفضيلة ليست لقبيلة من العرب. » ويقصد المهاجرين . وهكذا مضى في خطبته يضرب على هذا الوتر إلى أن أجابوه جميعاً ؛ « ان وفقت في الرأي واصبت في القول ولن نعدو ما أمرت ، نوليك هذا الأمر ؛ فأنت لنا مقنع ولصالح المؤمنين رضى » .

ثم انهم ترادوا الكلام فيما إذا أبت المهاجرة من قريش بيعتهم ، فقالت طائفة : « إذن نقول منا امير ومنكم امير » . فقال سعد : « هذا اول الوهن » وقد سبقت الاشارة اليه . وفي الحقيقة انه اول الوهن وتنازل منهم عرفنا فيما سبق دلالته على مبلغ ضعف ارادتهم امام ارادة قريش حتى قبل مواجهتهم ، بل يدل ايضاً على تخلخل صفوفهم ووجود خلاف كامن كمون النار في الرماد ، فلم يتأثروا بدعوة سعد ، وأبطأوا عليه حتى داهمهم المهاجرون ، وهم إنما اسرعوا إلى عقد هذا الاجتماع ليسبقوا الحوادث ، وإلا فقد كانت الفرصة الكافية لبيعته من قبل ان يعلم

جماعة المهاجرون باجتماعهم فتكبسه عليهم . لولا انهم اضاعوها باختلافهم وتباطؤهم حتى مضى الوقت .ومثل هذه الامور ـ بعرف الساسة ـ لا تقبل الاناة والابطاء .

والحق ان الاوس كانوا غير مرتاحين لبيعة سعـــد ، وهم يتنافسون مع الخزرج في أتفه الأشياء وادناها . وكأنهم كانوا لا يريدون ان يبدأوها بالخلاف خشية أن يقال : «اوس وخزرج» ، وفي هذه الكلمة ما فيهـا من معان لا تتفق وروحية الاسلام ، فيبتعدون عنها ما استطاعوا علىان المجاملة محفوظة بين الطرفين. ولذلك لما رأوا المجال للوثبة واسعاً نقضوا أمر سعدوما اجتمعت عليه الخزرج ، وهذا عندما رأوا ان الخلاف جـــاء من الخزرج انفسهم بمقالة بشير بن سعد الخزرجي ، وستأتي ، وباسراعه إلى بيعة ابي بكر ، وقد كان اول المبايعين . وايضاً رأوا ان الدعوة ضد سعد إنما جاءت من قبل غيرهم وهم المهاجرون .

فظهرت منهم حسيكة الخلاف والتنـــافس ، وقال بعضهم لبعض وفيهم اسيد بن حضير زعيمهم : « لئن وليتموها سعـداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لـكم فيها نصيباً ابداً فقوموا فبايعوا ابا بكر » فقـــام اسيد فبايع ومعه الاوس ، وليسأل السائل هل جعل لهم نصيب فيها بمبايعتهم لأبي

بكر؟ ولكنه التنافس هو الذي املى عليهم هذا القول، ومنافسة القرابة أبعد أثراً واعظم مفعولاً .

هذا ولا ينكر ما لأبي بكر من كبير أثر في استمالة الاوس إلى جانب المهاجرين ، ففد وقف موقفاً مؤثراً وكان يعرف من اين تؤكل الكتف فلم يفته ما كان يعلمه من التنافس بين الحيين ، حتى اشتغله لانقاذ الموقف وبرع في هذا الاستغلال ، فقد قال في ذلك اليوم : « ان هذا الأمر ان تطاولت اليه الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت اليه الأوس لم تقصر عنه الخزرج ، وقد كانت بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى ، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي اسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري »[1] .

فانظر إلى كلمة « لم تقصر » وما لها من بليغ اثر في القلوب المتحاسدة وما بها من تحريض لأحد المتناظرين على نظيره المتطاول .

نعم ! انها لتجعل لكل من الحيين الكفاية تجاه الحي الآخر. فان تطاول احدهما – وهم الخزرج الآن فحقيق بالآخر ان

---

(١) البيان والتبيين « ٣ : ١٨١ » .

يتطاول لها ككفتي ميزان ، من غير فضيلة يختص بها المتطاول . فلا تسل كيف إشرأبت اعناق الاوس لهذا الامر ؟

وبعدها انظر كيف ذكر التراث السابقة ونبش الدفائن وهذا ما يثير بالحفائظ ويوقظ الضغائن . وهنا راح يستدل على خطأ تولى احد الحيين لهذا الامر ، لأنه يقع بين خصمين ألدين : الحي الآخر المهاجرين ، فرماهم بالمسكنة كما يقول ابن دأب عيسى ابن زيد .

استطعنا في هذا البحث ان نلمس التنافس بين الاوس والخزرج لنعرف مدى تأثيره على مجرى حادث السقيفة ، كما عرفنا ان اهل الدعوة – عند التحقيق – إنما هم الخزرج فقط، ولم تشاركهم الاوس مشاركة جدية .

فلنترك الأنصار الآن مجتمعين في السقيفة يتبارون الخطب ويتحمسون لجهادهم وتضحيتهم وسعد بن عبادة قد ترأس حفلهم يخطبهم ويقول في آخر خطبته : « استبدوا بالأمر دون الناس فانه لكم دون الناس». ولنذهب ميممين المهاجرين وباقي المسلمين حول دار النبي في المسجد لنرام ماذا هم صانعون !

٤ ـ هل مات النبي محمد ...؟

نعم ! كان رسول الله ﷺ قد خرج في آخر فجر من حياته إلى الصلاة ، فصلى بالمسلمين الغداة . وكان هذا آخر عهدهم برؤية تلك الطلعة المحبوبة وذلك النور الإلهي .

ولم تزل شمس السماء إلا وقد آذنت شمس الارض بالمغيب من افقها إلى افق الحق الدائم ، وها هو ذا النبي مسجى بين اهله ينتدبون فيه حظهم والباب مغلق دون الناس .

انه يوم ...؟ وأي يوم هو على اهل المدينة والمسلمين !

فقدوا ...! وأية نعمة فقدوا ..؟

فقدوا الرحمة والانسانية . فقدوا الاخلاق الإلهية . فقدوا حياتهم وعزهم ومجدهم . فقدوا طريق الحق اللاحب وصراط الله المستقيم ونوره المشرق بآياتهَ الباهرة ..

فقدوا نبيهم العظيم وأباهم الكريم ... !

فاعظم بيومه يوماً ! واعظم به فقيداً !

انه يوم كان للمسلمين مضرب المثل فاذا بالغوا في يوم مصيبة قالوا : « انه كيوم مات فيه رسول الله » .

وما تنتظر من المسلمين ساعة يسمعون الواعية والباب مغلق

على من فيه ، إلا ان يهرعوا فيجتمعوا في مسجدهم والطرقات ، نكساً ابصارهم مطأطئي رؤسهم . ولم تبق عين لم تدمع ؛ ولا قلب لم يجزع ، ولا نفس لم يتقطع .

وما ينتظرون هم ... ؟

ـ لا شك ليس هناك ما يدعوهم إلى تكذيب النعاة . وإذ علموا آنئذ أن مجرى حياتهم قد تبدل راحـــوا ـ ولا شك ـ يتطلعون إلى ما يظهر لهم على مسرح العالم الاسلامي من حوادث ومفاجآت ، فتطيش لذلك عقولهم ، ويقوى حسهم بمستقبل هذا الدين الجديد الذي اخذ بأطراف الجزيرة ، والمنافقون يتحينون به الفرص ، فتنهد عزائمهم ، ويستشرفون ـ على الأكـثر ـ على خليفة النبي الذي سيقود الأمة لينقذ الموقف ، فيضربون اخماساً في أسداس .

كل هذه الأفكار واكثر منها ـ بغـــير شك ـ كانت تمر على رؤس ذلك الجمع الحاشد الطائش اللب الحـــائر الفكر ، الذي يحوم حول دار النبوة والوحي يرقب منها ـ على عادته ـ ان تبعث له بما يطمن خاطره ويهدىء روعه ويعرفه مستقبل امره ، حتى اصبح الناس كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية « كما في الحديث » .

ولكن .. ولكن عمر بن الخطاب صاحب رسول الله ذلك

الرجل الحديدي ابى على الناس تصديقهم بموت نبيهم ، إذ طلع صارخاً مهدداً « وقد قطع عليهم تفكيرهم وهواجسهم » وراح يهتف بهم : « ما مات رسول الله ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله . وليرجعن فليقطعن ايدي رجال وارجلهم ممن ارجف بموته . لا اسمع رجلا يقول مات رسول الله إلا ضربته بسيفي ».

اتراك « لو خلوت بنفسك وانت هادىء الافكار » تقتنع بوحي هذه الفكرة من هذا الذي لا يقعقع له بالشنان ، وأنت لا تدري لماذا رسول الله يقطع ايدي وارجل من ارجف بموته ، أو بالأصح من قال بموته ؟ ولأي ذنب يستحق الضرب بالسيف هذا القائل ؟ ومن أين علم ان رسول الله لا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله ؟ وما هو هذا الرجوع ؟ ارجوع بعد الموت أو بعد غيبة « كغيبة موسى بن عمران كما يدعيها عمر بن الخطاب في بعض الحديث » ولكنها اية غيبة هذه وهو مسجى بين اهله لا حراك فيه ؟

إلا اني اعتقد أنك لو كنت ممن ضمه هذا الاجتماع لذهبت بتياره ولتأثرت بهذا القول إلى أبعد حد كسائر من معك ما دام الاجتماع بتلك الحال التي وصفناها ، والخطيب هو عمر بن الخطاب ، وقد جاء بتلك الدعوة الثائرة ، في صرامة ارادة

ورأي بالغا اقصى درجات الصرامة ، وقد استعمل المغريات الخلابة للجماعات : فمن امل بحياة الرسول وباظهار دينه على الدين كله ـ إلى توعيد بقطع رسول الله ايدي وارجل المرجفين بموته وتهديد منه « اعني عمر » بقتل من يقول مات رسول الله .

انهما الخوف والأمل إذا اجتمعا مع هذا الرأي القاطع والارادة الصارمة لهما التأثير العظيم الذي لا يوصف على أفكار الجماعة الاجتماعية وأي تخدير بهما لأعصاب المجتمعين . ومن وراء ذلك ان شأن المحبين يتعللون في موت حبيبهم إذ نعي بالأوهام ولا يرضون لأنفسهم التصديق بموته لا سيما مثل فقيدهم هذا العظيم الذي يجوز عليه ما لا يجوز على البشر .

ولا شك ان مميزات الجماعة المقصودة لعلماء الاجتماع كانت متوفرة في الاجتماع الفجائي المضطرب الأفكار المتأثر بهذا الحدث العظيم المتحفز للحوادث المجهولة والمفاجآت المنتظرة . ومن البديهي ان الاجتماع الذي يتألف على هذا النحو تتكون منه روح واحدة مشتركة حساسة تتغلب على نفسيات افراده الشخصية ، وتكون هذه الروح خاضعة لمؤثرات لا حكم لها غالباً على روحية الفرد لو كان خارج الاجتماع . واهم خواص هذه الروح انها تكون عرضة للتقلبات والانقلابات الفجائية ويبطل فيها حكم

العقل وسلطانه ويقوى سلطان المحاكاة والتقليد الاعمى. ولذلك لا تفكر الجماعات إلا بأحط فكرة فيها، وتقبل ايضاً كل فكرة تعرض عليها إذا اقترنت بالمؤثرات الخلابة وان خرجت عن حدود المعقول . ومن اقوى المؤثرات شخصية الخطيب وصرامة رأيه .

فلا نستغرب قناعة المسلمين يومئذ برأي عمر بقدر ما نستغرب منه نفسه هذا الرأي ، وان لم ينقل لنا صريحاً قبولهم له ، كما لم ينقل في الوقت نفسه اعتراض احد عليه سوى ابي بكر وقد جاء متأخراً . وإذا ابيت فعلى الأقل شككهم في موت النبي وألهاهم عن التفكير فيما يجب ان يكون بعده وفيما سيحدث من حوادث منتظرة ، لأنهم -لا شك- التفوا حوله متعجبين مستغربين وهو مستمر يبرق ويرعد مهدداً حتى « ازبد شدقاه» .

ولكلمة « الأرجاف » هنا التأثير البليغ في اقلاع افكار الجماعات عن الدعوى التي يدعونها لأنها من الألفاظ الخلابة التي تتضمن التهجين الشنيع للدعوى والاشمئزاز منها إلى أبعد حد ، إذ نشعر هنا ان مدعيها من المنافقين الذين لهم غرض مع النبي والاسلام ، فقال « .... ممن ارجف بموته » ولم يقل ممن ادعى او قال . وهذا كاف للتأثير على الجماعات وتكوين الشعور

بكراهية دعواها .

ويشهد لتأثير كلامه على سامعيه التجاء ابي بكر لما جاء من السنح [1] ان يكشف عن وجـه النبي ليتحقق موته ، ثم يخرج إلى الناس مفنداً مزاعم عمر ، وعمر مستمر يحلف انـه لم يمت . وطلب اليه ان يجلس – فلم يجلس – ثـلاث مرات ، فقال له : «أيها الحالف على رسلك» ... ثم قام خطيباً في ناحية اخرى وقد اجتمع حوله الناس فتشهد وقال – وعمر مستمر وقـد تركه الناس – :

« من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ...». ثم تلا هذه الآية الكريمة : « أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ...».

و « شاهد ثان »: ان الناس لما سمعوا كلام ابي بكر اصبحوا كأنما اخرجوا من مأزق او اطلقوا من عقال ، فانهم تلقوا الآية كلهم وراحوا يلهجون بها«فما تسمع بشراً من الناس إلا يتلوها».

---

(١) وهو يبعد عن المسجد بميل واحد « وفي رواية عن عائشة » وكذا في معجم البلدان ولعله اعتمد على هذه الرواية . ولكن السنح هو عالية من عوالي المدينة وادنى العوالي ـ بتقدير نفس المعجم ـ يبعد بأربعة أميـال أو ثلاثة .

أما عمر فقد صعق إلى الأرض وصدق حينئذ بموت النبي بعد ان تحقق ان الآية من القرآن ، كما يقول .

* * *

لله ابوك يا بن الخطاب ! ما ادهشني بك ، وأنت أنت ، إذ تقف ذلك الموقف الرهيب حالفاً مهدداً ، لتنكر امراً واضحاً، ألم يعلمك الاسلام حقيقة محمد فتنكر انه يموت ؟ ثم تسمي مدعى موته « مرجفاً » ؟

– لا ؟ ولكنك تحاول ان تقنع الناس انــــه غاب كما غاب موسى بن عمران ، فيرجع ليقطع الأيدي والأرجل . إلا انـــه – مالله عليك – اية غيبة هذه ؟

وانت اعجب واعجب حين تسرع مصدقاً وتنقاد طائعـــاً لقول قاله ابو بكر لا يكذبك ولا يصدقك، بعد ذلك التوعيـد والتهديد . او لست أنت كنت تعترف انه يموت بعـد ان يظهر دينه على الدين كله ؟ فأي دليل كان في الآية ناقض قولك فأقنعك حتى صعقت إلى الأرض . والآية لا تدل على انه يموت يوم مات !.

واعجب من ذلك كله وقوفك بعد يوم معتذراً فتقول : فاني قلت بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب

الله ولا كانت عهداً عهده إلي رسول الله . ولكن كنت ارجو ان يعيش رسول الله فيدبرنا ويكون آخرنا موتاً [1] . فأين هذا الرجـــاء الفاتر من تلك الصرخة المعلنة وذلك الحلف والتهديد وطعن القائل بموته بالارجاف ؟ واين هـذا الاعتذار الهادىء من تلك الدعوى الثائرة ؟

ان الامر لسراً عظيماً !

يبدو لي ان عمر كان أبعد من ان يظهر بهذه السهولة لقارئي هذه الحادثة . ومن البعيد جداً وفوق البعد ان يعتقد مثله ان النبي لا يموت يوم مات ، وهو الذي قال في مرضه – كما سبق – بكل رباطة جأش : « ان النبي قـــد غلبه الوجع ... حسبنا كتاب الله » . فأي معنى تراه لقوله « حسبنا ... » لرد الكتاب الذي اراده النبي لأمته بعد موته ، لو لم يكن معتقداً انه سيموت وان كتاب الله يغني عن اي شيء آخر يريد ان يقرنه النبي به .

---

(١) اقتبسنا مجموع هذه العبارة من كنز العمال « ٣ : ١٢٩ ، ٤ : ٥٣ » ومن تاريخي الطبري وابن الأثير والبخاري « ٤ : ١٥٢ » والسيرة الدحلانية « ٢ : ٧ ؛ ٣ » ولفظ « كنت ارجو ان يعيش . . » في الصحيح والسيرة . والمروي في هذه الكتب وغيرها بألفاظ متقاربة جداً وتختلف بمـا لا يضر بالمعنى .

وهل تراه قال ما قال دهشة بالمصيبة ؟ فما باله لم يعتذر بذلك بعد يوم وقد سمعت اعتذاره ! بل ما باله لم يزد دهشة لما تحقق انه قد مات ! هيهات ان يكون قد دهش فيخفى عليه موت النبي وهو هو من نعرف .

وبعض الناس قد جهلوا عمر بهذا وابعدوا ، فقالوا : من يجهل مثل هذا الأمر الواضح المعلوم بالاضطرار جدير بأن لا يكون إماماً راعياً للامة ...

والتجأ بعضهم الآخر ان يعتذر عنه بأن ذلك من فرط دهشته .

وفيما عندي ان الطرفين لم يعرفاه حق عرفانه ولم يصلا إلى غوره وتدبيره في هذا الحادث المدهش . فان من يعتقد ان النبي قد غاب فيحلف لا يقنعه مثل حجة أبي بكر فيرتدع. ومن خبل بالمصيبة فهو عند اليقين بها ادهش وادهش .

* * *

ويكفي المتدبر في مجموع نقاط هذه الحادثة ان يفهم هذا الذي لا يختل بالحرش ، فيعرف ان وراء الاكمة ما وراءها ، ولا يضعه حيث وضعه الناس .

الا تعتقد معي انه كان يخشى ان يحدث القوم ما لا يريـد ، وقد اشرأبت الأعناق ـ بطبيعة الحال ـ إلى من سيخلف النبي ، وهذه ساعة طائشة ، وابو بكر بالسنح غائب ، وهو خدنــه وساعده ، وهما اينما كانا هما ولعلهما وحدهما قد تفاهما في هـذا الامر .. فأراد أن يصرف القوم عماهم فيها ، ويحوّل تفكيرهم إلى ناحية اخرى ، ان لم يجعلهم يعتقدون غيـاب النبي . حتى لا يحدثوا بيعة لأحد من الناس قبل وصول صاحبه . وليس هناك من تحوم حوله الافكار إلا علياً للنص عليه كما نعتقد أو لأنه اولى الناس ، ما شئت فقل « حتى كان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون ان علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله »[1] .

وكانوا يلاحظون في علي بن ابي طالب صغر سنه[2] وحسد العرب وقريش خاصة إياه ، وتمالؤها عليه ولا تعصب الدمـاء التي اراقها الاسلام إلا به ، لأنه الأمثل ، في عشيرة الرسول على عادة العرب وبسيفه قتل اكثر ابطالهم . ويلاحظون « رابعاً » كراهة قريش لاجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم فيبجحون على قومهم بجحاً بجحاً كما يراه عمر فيما سبق في الفصل الثـاني من

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد « ٢ : ٨ » .
(٢) راجع الامامة والسياسة .

محاورته مع ابن عباس . ويلاحظون « خامساً » انه سيحملهم إذا ولي الامر على الحق الأبلج والمحجة البيضاء وان كرهوا « على حد تعبير عمر نفسه » ، والحق مر في الأذواق .

ويظهر ان عمر بطل المعارضة في إمارة علي كما شاهــدنا موقفه في قصة الكتاب الذي اراد ان يكتبه النبي وفي مواقفه التي اشرنا إليها في الفصل الثاني ، فلا نعجب إذا رأيناه يقف هذا الموقف ليلهي الناس عما يخشاه من استباق احد إلى بيعة علي قبل مجيء ابي بكر .

اما انه هل كان يدري كيف سيخرج من هذا المأزق الذي ادخل نفسه فيه فاغلب الظن انه غامر بنفسه ليقف الناس عند حدهم . وعلى صاحبه إذا جاء ان يدبر الامر حينئذ .

واقوى الشواهد على هذا التعليل ما قلناه من سرعة قناعته بقول صاحبه ابي بكر ، وهو لا يمس دعواه تكذيباً ... وليس إلا ان جاء ابو بكر ووقف خطيباً والتف حوله الناس وهو يعلم من ابو بكر فقد انتهت مهمته وانقلب الدور ، ولم يبق إلا ان يخرج من موقفه الحرج بلباقة ، لئلا يحسوا بهذا التدبير فينتقض الغرض ، فصعق الى الأرض كأنمــا تحقق موت النبي من جديد مظهراً القناعة بقول صاحبه . ثم لم يلبث ان راح يشتــد معه

لعملها كأنما نشط من عقال ولم يقل ما قال، ولم يظهر ما اظهرمن الدهشة والاضطراب ، حتى رمى بالخبل وهو عنه بعيد ، فقد ذهب بعد ذلك الى السقيفة مع ابي بكر حينما علما باجتماع الانصار السري ووقفا ذلك الموقف العجيب ، وسنحدثك :

٥ ـ وصول النبأ باجتماع الأنصار

لم يهدنا التأريخ إلى ان ابا بكر وعمر اي شيء صنعا مباشرة بعد حادثة انكار موت النبي واجتماعها ، وإن كانا قبل ذهابهما إلى السقيفة فهل دخلا إلى دار النبي معاً والباب مغلق دون الناس ، او انهما وقفا على الباب ؛ او ان ابا بكر وحده دخل الدار ؟ كل واحد من هذه الاحتمالات يستشعر فيه حديث . وجائز وقوعها جميعاً .

ولكن مثلها جدير به ألا يبارح دار النبي ﷺ في مثل هذه الساعة ، وإذا كان شيء يحدث فانما يحدث ها هنا، ومحوره هذا المشغول بجهاز النبي « علي بن ابي طالب » ، ومن كان ينوهم ان الأنصار تستبد بهذا الأمر على آل البيت والمهاجرين وتطمع فيه دونهم فتبادر إلى اجتماعها معرضة عمن لهم شأن لا ينكر في هذا الأمر .

واغلب الظن انه لم يطل الزمن على وصولهما إلى الدار حتى جاء اثنان من الأوس مسرعين إلى دار النبي ، وهما [1] معن بن عدي وعويم بن ساعدة ؛ وكان بينهما وبين سعد الخزرجي المرشح للخلافة موجدة قديمة ، فأخذ معن بيد عمر بن الخطاب ، ولكن عمر مشغول بأعظم أمر فلم يشأ ان يصغي اليه ، لولا ان يبدو على معن الاهتمام إذ يقول له : « لا بد من قيام » فأسر اليه باجتماع الأنصار ففزع اشد الفزع ، وهو الآخر يصنع بأبي بكر ما صنع معن معه ، فيسر إلى ابي بكر بالأمر ، وهو يفزع ايضاً اشد الفزع . فذهبا يتقاودان مسرعين إلى حيث مجتمع الأنصار ، وتبعهما ابو عبيدة بن الجراح ، فتماشوا إلى الأنصار

---

(١) ذكر ذلك في العقد الفريد « ٣ : ٦٣ » وفي الجزء الثاني من شرح النهج ولم نر غيرهما يصرح باسم الشخص المخبر . ولكن عمر بن الخطاب نفسه يحدثنا انه صادفاهم في ذهابهم إلى السقيفة ، فأشار عليهم بالرجوع ليقضوا أمرهم بينهم . واحسب ان عمر أراد ان يحفظ لهما هذه اليد ، فيكتم عليهما غايتهما هذه على قدومهما دفاعاً عنهما ، لأن الأنصار اجتمعت بعد بيعة ابي بكر في محفل فدعوهما وعيروهما بانطلاقهم إلى المهاجرين واكبروا فعلهما فخطبا فردت عليهما الانصار واغلظوا وفحشوا عليهما وكل منهما قال شعراً : « راجع شرح النهج ٢ : ١١ نقلا عن كتاب الموفقيات للزبير بن بكار » .

ثلاثتهم [1] .

اما علي واما من في الدار وفي غير الدار من بني هاشم وباقي المهاجرين والمسلمين ، فلم يعلموا بكل الذي حدث وبما عزم عليه ابو بكر وعمر .

ولماذا ؟ ـ ألم تكن هذه الفتنة التي فزعا لها اشد الفزع تعم جميع المسلمين بخيرها وشرها واخص ما تخص علياً ثم بني هاشم؟ او ليس من الجدير بهما ان يوقفاهم على جلية الأمر ليشاركوهما الرأي ويساعدوهما على اطفاء نار الفتنة الذي دعاهما إلى الذهاب إلى مجتمع الأنصار مسرعين ؟ ثم لماذا يخص عمر ابا بكر دون الناس ثم ابا عبيدة ؟

ليس من السهل الاحاطة بأسرار ذلك التكتم وهذا التخصيص ، وهو موضوع بكر لم يقرع بابه الباحثون . ولكنا إذا علمنا ان الجماعة كانوا يلاحظون في علي تلك الامور التي ذكرناها في البحث السابق فيحذرون ان يستبق إلى بيعته مستبق ، نجد منفذاً إلى خبايا هذا التكتم ونطمئن إلى انهم رأوا الأصلح لهم ان يتداركوا الأمر بأنفسهم من دون ان يشيع الخبر وحينئذ يستطيعون ان

---

(١) الطبري « ٣ : ٢٠٨ » .

يهيمنوا على الوضع ولا يقع ما يحـــذرون ، إذ يكبسون على الأنصار اجتماعهم السري في جو هادىء ممن يتحمس لعلي. وهذا التخصيص من عمر يشجعنا على ان ندرك التفاهم السري بينـــه وبين ابي بكر بل بينهما وبين ابي عبيدة في هذا الشأن بل بينهم وبين سالم مولى ابي حذيفة . ولذلك وجدنا عمر بن الخطـــاب يأسف عند الموت ألا يكون واحد من هذين « ابي عبيدةوسالم» حياً حتى يجعل الخلافة فيه من بعده مع ان سالماً ليس منقريش.

وإذا كانوا لم يلاحظوا في علي ما قلناه ، فمن هو اجدر منه بالاخبار بهذا الامر ومن اجدر من قومه بني هاشم وعـــلي ليس ذلك الرجل الذييستهان بشأنه ويستصغر قدره حتى لا يستشار ولا يخبر بمثل هذا الأمر الخطير ، وهو ان لم يكن منصوصاً عليه بالخلافة فان مؤاخاة النبي له مرتين دون سائر الخلق وجعله منه بمنزلة هارون من موسى وهو احب الناس اليه ومولى كل من كان مولاه وولي كل مؤمن بعده ووارثه ووصيه ويدور الحق معـه كيف ما دار ... كل هذا وغيره ما شئت ان تحدث يجعـــل له المنزلة الأولة في هذا الشأن ليستشار على الأقل .

ولئن كان مشغولاً عنهم بجهاز النبي ﷺ فجدير بأنيكون على خبر من ذلك ليكون ردأ لهم عند حدوث مـا يكره ، وهم

مقدمون على أمر عظيم ، وعلي من لا ينكر في شجاعته وبطولته وإيمانه وتفانيه في سبيل نصرة الاسلام . ولكنه بالرغم من ذلك، كله لم يعلم بالحادث إلا بعد ان سمع التكبير من المسجد عالياً ، وقد فرغوا من اجتماع السقيفة وجاءوا بأبي بكر يبايعونه البيعة العامة .

ولست في تعليلي هذا ادعي الاحاطة بأسرار هذا التكتم وإنما ذكرت ما يبدو لي عند البحث مقتنعاً انه اهم اسراره وعسى ان يكون هناك من يستطيع ان يشبع الموضوع بحثاً ، فيزيدنا علماً على علم او يكشف لنا إنا على جهل .

٦ ـ تأثير دخول المهاجرين في اجتماع الانصار

لنجيء الآن مع ابي بكر وعمر وابي عبيدة إلى السقيفة ، فنرى الأنصار مجتمعين يتداولون الحديث، وسعد بن عبادة بينهم مزمل وجع يخطب فيهم وقد ترأس حفلهم مرشحاً للخلافة .ولا نشك ان الأنصار الآن في لغط وحماس ، قد اخذت الأنانية والفخر بأطرافهم معدين للوثبة عدتها ، يريدون في اجتماعهم السري هذا ان يقبضوا على ناصية هذا الأمر العظيم ، وليس أمامهم من يطاولهم .

وإذ يدخل عليهم وجوه المهاجرين فجأة لا بد ان يسقط في ايديهم بافتضاح امرهم قبل ابرامه ، وبتخوفهم من خروجه من ايديهم بعد ما قالوا وصنعوا . ولا بد ان يرتكبوا لذلك ويقوي فيهم شعور الخذلان . وقد عرفنا نفسياتهم التي يتغلب عليها الضعف ، فيتغير عليهم مجرى الحادثة . وهنا ينقلب الدور فيتهيئون لمواجهة هذا الحادث الجديد بما يقتضيه : فمن كان يبغض الامارة لسعد وجد الفرصة قد حانت للانتقاض عليه ، وبالعكس اصحابه الذين يوادونه لا بد ان ينقلبوا مدافعين . وهذا اول تبدل في حالهم وانخذال في اجتماعهم .

وبعد دخول جماعة المهاجرين هذا الاجتماع وسؤالهم عن هذا المزمل من هو ؟ وما شأنه ؟، نرى عمر يذهب ليبتدىء المنطق، وقد زور في نفسه مقالة في الطريق ليقولها بين يدي ابي بكر ، وكان يخشى جد ابي بكر اوحدته ، وكان ذا جد كما يقول هو . ومن الواضح ان الموقف دقيق جداً يدعو إلى كثير من اللين واللباقة رعاية لهذه العواطف الثائرة المتحفزة ، ولكن ابا بكر يمنع عمر من ابتداء الكلام، وكأنه هو ايضاً يرقب شدته وغلظته المعروفتين فيه فانطلق يتكلم،وما شيء كان زوره عمر إلا اتى به او بأحسن منه على ما يحدثنا عمر نفسه .

ولقد كان ابو بكر يحسن المعرفة بما يتطلب هذا الوضع من الرفق والسياسة ، او لا ترى لما كادوا ان يطأوا سعداً قال قائل : قتلتم سعداً .. فقال عمر وهو مغضب : « اقتلوا سعداً قتله الله انه صاحب فتنة » فالتفت اليه ابو بكر قائلاً : « مهلاً يا عمر ! الرفق هنا ابلغ » .

ولا اعتقد مع ذلك ان عمر كان يجهل ضرورة الموقف ولكني اخاله ـ وقد تمت البيعة لأبي بكر ـ لم يجد حاجة لكثير من هذا اللين والمداراة وقد اخذ بموافقة الأنصار إلا القليل ، وتحقيق فشل سعد وانخذاله . فهو اذن يعرف موضعي اللين والشدة . ولعله ـ هو رجل الساعة بعد أبي بكر ـ اراد ان يظهر بالغلظة لينطق ابا بكر بكلمة اللين .

٧ ـ تأثير خطب ابي بكر على المجتمعين

من المتيقن ان الرجال الذين سادوا الامم والجماعات فأحسنوا سيادتهم هم من ابرع الناس في علم الاجتماع وهم لا يشعرون . وإنما جبلوا على معرفة فطرية تشحذها التجارب التي تخلق في النفس الملكة على التطبيق النظريات عند الحاجة . وابو بكر وعمر هما من اولئك الناس الذين عرفوا خواص نفسية الجماعات وكيف

يمكن التأثير عليها في الوقت المناسب كما دلت الحوادث المتكررة على ذلك .

ولا شك ان مميزات الجماعة المقصودة لعلماء الاجتماع كانت متوفرة ايضاً هنا اتم من توفرها في اجتماع المسجد غب موت النبي الذي اشرنا اليه سابقاً ، فقد كان الاجتماع حافلاً التجأ فيه سعد ابن عبارة ان ينيب عنه ابنه او بعض بني عمه في إلقاء كلامه فيرفع به صوته ليسمع المجتمعين . وقد اجتمعوا لغرض واحد حساس اعني تأمير من يخلف ذلك النبي العظيم ، ليكون على رأس هذه الامة الكبيرة القوية المستجدة ، وهم على ما هم عليه من الحال التي وصفناها من التوثب والشعور بالاستحقاق والتكتم .

واظنك عرفت في البحث الاسبق ان الاجتماع الذي يتألف على هذا النحو كيف يطلع فيه قرن العاطفة ويأزر رأس العقل والتفكير في المجتمعين فيصبح عرضة للتقلبات والانقلابات الفجائية ويقوى فيه سلطان المحاكات والتقليد الاعمى . بل تظهر عليه الاعراض المتناقضة ، فبينا تجده قد يقوم بأعمال وحشية جبارة تدل على شجاعة افراده البالغة حدها تجده مرة اخرى يجبن من الصغير ..وبينا تراه يأتي بأعمال صبيانية مضحكة تراه تارة اخرى يحكم التدبير والتنظيم . وما ذلك كله إلا من سجية

المحاكاة الموجودة في كل انسان فتسود على المجتمع عندما يبطل حكم العقل وحينئذ يكون تابعاً مسخراً لكل من يحسن تسخيره بالمؤثرات التي تهيمن على العاطفة كالمنوم تنويماً مغناطيسياً .

ونحن إذا فهمنا جيداً هذه البديهيات عن روحية الجماعات ولاحظنا توفر شروط الجماعة الاجتماعية في جماعة السقيفة ،نفهم معنى تلك الاساليب التي اتبعها ابو بكر وصاحبه كما سترى للتأثير على المجتمعين يومئذ ونفهم سر تأثر جماعة الانصار وانقلابهم الفجائي على أنفسهم ، فأخذ ابو بكر وعمر الامر من ايديهم باختيارهم . على انهما في جنب قوة الانصار واعتزازهم بجمعهم تلك الساعة لا يعدان شيئاً ، وليس من المهاجرين معهما إلا ابو عبيدة بن الجراح كما سبق وسالم مولى ابي حذيفة على رواية فاسمع الآن الى الاساليب التي قلنا عنها :

لقد رأينا سابقاً كيف حرش ابو بكر بين الانصار ، وأثار عواطف الاوس على الخزرج . وقد صادف منهم نفوساً متهيئة الوثبة على سعد . حتى استمالهم إلى جانبه وهم يشعرون اولا يشعرون . في حين انهم يعلمون ان الأمر إذا كان للانصار وان تولاه رئيس الخزرج فهو إلى حيازتهم اقرب وإلى سلطانهم ادنى. ولكن للعاطفة هنا سلطانها القاهر على النفس لا يقف في وجهها

أي سور محكم من المنطق والتفكير .

ولنفحص الآن « خطبته » التي واجههم بها في اول الملاقاة وقال عنها عمر : « ما شيء كان زوّرته في الطريق إلا اتى به أو بأحسن منه » . فانه ذكر فيها اولاً ما للمهاجرين من فضل وسابقة في الاسلام بأنهم اول من عبد الله في الارض وآمن بالله وبالرسول وانهم اولياءه وعشيرته واحق الناس بهذا الأمر « اي الخلافة » من بعده . وان العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش وانهم لا ينازعهم في ذلك إلا ظالم .. ! ثم خاطب الأنصار فلم يغمط حقهم وسابقتهم وجهادهم ، لكن... لكن من غير استحقاق لهذا الأمر ، وإذا استحقوا شيئاً فانما هي « الوزارة » .. ولغيرهم... « الامارة » . فقال :

« .. وانتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلكم في الدين ولا سابقتكم العظيمة في الاسلام . رضيكم الله انصاراً لدينه ولرسوله وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة ازواجه واصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء . وانتم الوزراء » . [1]

---

(١) الطبري « ٣ : ٢٠٨ » .

وفي هذا البيان الشيء المدهش مـــن اطفاء نار عواطفهم المتأججة ضد المهاج ن. واشباع نهمة نفوسهم الفخورة المتطاولة بفضلهم ، وجهادهم ونصرتهم ، وتقريبها إلى المهاجرين للاعتراف بفضلهم عليهم ، لانه ليس اقوى على تحذير اعصاب الجمـــاعة الهائجة من الذهاب مع تيار روحهم المندفعين بها ، فأعطى لهم ما يسألون بلسان حالهم من الاعتراف بالفضل والجهاد و كل فخر يشعرون به متطاولين .

حقاً لقد صدق وصدقوا ، فان لهم الفضل الذي لا ينكر ، ولكنهم أخطأوا بزعمهم ان لهم بذلك حق الامارة ، وهنا نجد ابا بكر يريد ان يحولهم عن هذا الزعم ، فيحـــذر ان يخدش عواطفهم بما ينقص منزلتهم ويحط من مقامهم ، فعدل عن التصريح بكلمة الخطأ او ما ينسق عليها من معناها ، واتبع اسلوباً آخر من البيان وانه لمن السحر المأثور فلم يزد على كلمة : « فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء وانتم الوزراء » . وفيها تنبيه على خطأهم من طرف خفي من دون التجاء إلى الكلمة التي بها تجرح عواطفهم وتثير الحزازات مع الثناء عليهم في نفس الوقت ثم اثبات الوزارة لهم .

وإذا أردت التدقيق في هذه الكلمة ترى الشيء الأعجب :

فهو الآن يريد ان يفضل المهاجرين الأولين « الأولين بالخصوص ! » عليهم ، ليثبت لهم استحقاق الخلافة ، ولو كان وضعـــها في طرفين وفضل المهاجرين لآثار ذلك بحفيظتهم وحرش بين خصمين متطاولين من القديم ، فعدل عن منطوق مقصوده والتاف اليهم من طريق تفضيل الأنصار انفسهم على الناس . والقى في الطريق كلمة « بعد المهاجرين الأولين » فتظاهر انه يريد ان يقول : ليس احد بمنزلة الانصار . وان هذا مقصوده ليس غير ، وانما استثنى المهاجرين كأمر ثابت مقرر لا يتطرق اليه الشك وليس محـــلا للنقاش لا لأنه المقصود في البيان .

وهنا إذ تهدأ تلك النفوس الجامحة في الجماعة راضية بما قيل لها وفق شعورها تتفكك اوصالها وترجع من حيث جاءت كأنما حصل لها كل ما تصبو اليه . وهذا من انحطاط نفسية الجماعات فلا تشعر بالنتيجة التي يراد اخذها منها وان خالفت تفكيرها عند التأمل ، لأن عادة الجماعة في الافكار ان تقبلها جملة او تردها جملة ، ولا طاقة لها على التأمل والتفكيك بين الافكار ولا صبر لها على التمييز .

مضافاً إلى ان الوعد بجعلهم الوزراء لا يفتاتون بمشورة ولا تقضي الامراء دونهم الامور يطمن من رغباتهم واطـــماعهم ،

ويذهب بخوفهم من الاستبداد عليهم وأخذ الثأر منهم ، ويسدل على ما حاولوه ستاراً كثيفاً من النسيان . وبعبارة اصح ، يأخذ اثره الوقتي وتلهو الجماعة عن صدق الوفاء به ولا تحتاج إلى التدليل عليه ، ولا يكلف قائله إلا الوعد وبهرجة الكلام .

وهناك كلمتان اخريان في تلك العبارة التي حللناها لا يفوتنا ان نتعرف اليهما وإلى ما فيهما من معنى اخاذ .

الاولى ـ كلمة « الأولين » ـ فأبعدهم بها عن شعور الخصومة الموجودة للمهاجرين عامة . والمهاجرون والأنصار حزبان متطاولان وقد كان تنافسهما امراً واضحاً للعيان في زمن الرسول وبعده حتى قال لهم النبي يوماً : « ما بال دعوى اهل الجاهلية » ، وذلك عندما قال الانصاري : « يا للأنصار ! » وقال المهاجري : « يا للمهاجرين ! » فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة في قصة مشهورة [1] ـ فتجد ابا بكر بتخصيص المهاجرين بالاولين كيف اتقى شعور الانصار بخصومتهم لعامة المهاجرين ، وهم لا ينكرون ما للاولين من فضل وقد سبقوهم إلى الاسلام وعبادة الرحمن على انه بهذا التخصيص

(١) راجع البخاري « ٢ : ١٦٥ و ٣ : ١٢٦ » .

قرب نفسه وصاحبيه إلى هذا الامر .

الثانية ـ كلمة « عندنا » ـ فانظر إلى ما فيها من قوة سحرية إذ رفع نفسه بها عن مقام القرن المنازع للانصار ، واخرجها عن الحزبين : الأنصار والمهاجرين ، ونصب نفسه بها كحكم بينهما بفضل هذا على ذاك ثم يختار لهم ما فيه الصلاح . وهذا له الأثر البليغ في اخماد نار عاطفة التعصب عليه ، ويعطيه ايضاً منزلة في نفوسهم هي اعلى وارفع تجعل له نفوذ الحكم المستشار والزعيم للفريقين وعلى العكس فيما لو نصب نفسه مزاحماً لهم مطالباً بحق يعود له ولحزبه . وشأن الجماهير انها لا تنتظر الدليل على الدعاوي البراقة المبهرجة . لأن التصوير ولو بالألفاظ له الحكم الفصل على نفسياتها .

فارجع الآن إلى تلك العبارة ودققها ، وهي جعجعة تسحن الجماعات من غير طحن ، وإلا فمن المقصود بضمير « عندنا » يتكلم عنه ابو بكر غير جماعة المهاجرين وهو منهم ، وعلى تقديره فمن الذي خوله ان يمثل المهاجرين بشخصه ؟ ... ولكنه جرد من نفسه « ومعه غيره » حكما مفضلاً ، عنده المهاجرون أفضل من الانصار وليس بمنزلة الانصار احد بعدهم .

فلا نعجب بعد عرفاننا هذه الأساليب التي لها القوة السحرية

على الجماعات ان يأخذ ابو بكر بناصية الحال ، ويستهوي المجتمعين لينظروا اليه بقلوبهم لا بعقولهم ، فيصرفهم كيف يريد، فانتظر نتيجة تأثيره عليهم .

٨ ـ نقاش المهاجرين والانصار

قرأنا في الفصل السابق خطبة ابي بكر ومافيها من الأساليب فلنر مدى تأثيرها على المجتمعين وكيف كانت النتيجة ؟

لم يرد عليه إلا الحباب بن المنذر في كلامه المتقدم في البحث رقم (٢) وقد رأيناه لم يأت بشيء وكان اول منخذل امام المهاجرين وإن ظهر بالقوة التي تلاشت في آخر كلامه كما شرحناه، ففتح على نفسه باب الحجة الظاهرة إذ قال : « فمنكم أمير ومنهم امير » ، على انه ظهر جلياً بمظهر المتعصب المغالب ، فاستهل كلامه بقوله « املكوا عليكم امركم ... » وهذا مردود عليه معكوس الاثر ، وسيأتي .

وهنا ، جاء دور عمر بن الخطاب فقال : « هيهات ! لا يجتمع إثنان في قرن . والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم وولي امورهم منهم . ولنا بذلك على من ابى من العرب الحجة

الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن اولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل او متجانف لاثم او متورط في هلكة » .

فتجد كلام عمر هذا ـ وان كان هادئاً ـ لا يبلغ كلام ابي بكر إذ ظهر بمظهر الخصم المدعى بحق الامارة . وكأن ابا بكر فسح له المجال لأن يكون هو المدعي العام عن المهاجرين بعد ان نصب نفسه كحكم للمتنازعين . كما نلاحظ ايضاً انه لم يشر إلى قضية النص على قريش او على خصوص واحد منهم ، وإنما القضية قضية رضى العرب واباؤها وان المهاجرين اولياء محمد وعشيرته . ولذا قال علي عليه السلام بعد ذلك : « احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة » .

فقام الحباب بعد عمر فقال : « يا معشر الانصار املكوا عليكم امركم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فان ابوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الامور ، فأنتم ـ والله ـ احق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . انا جذيلها المحكك وعُذيقها المرّجب . انا شبل في عرينة الاسد . اما والله لو شئتم لنعيدنها جذعة . والله لا يرد أحد على ما اقول

إلا حطمت انفه بالسيف » .

وهذه عصبية جاهلية وسوء قصد ظـــاهر . فقال له عمر : « إذاً يقتلك الله » فانتحى به الناحية الدينية إذ نسب القتل إلى الله تعالى ولم يقل يقتلك الناس . وهذا اسلوب من الرد فيـــه التهديد والتنديد على تلك دعوى الجاهلية منه . فقال الحباب : « بل إياك يقتل » .

وهذه مهاترة يلتجأ اليها عند ضعف الحجة وشدة الغضب ، فترى الحباب في كل ذلك كان قلق الوضين يرسل من غير سدد ، وتتضوع من فمه رائحة نفسه ، ولا يعرف ارن يسر حسواً في ارتغاء . فاقتحم في الميدان بجنان الفارس المدله المدل بقوته ونفسه ، ومن سيفه ولسانه تنطف دعوى الجاهلية الأولى البشعه في الاسلام ، تأباها عليه الصبغة الدينية المصطبغ بها المجتمع يومئذ ، وهو في الدرجة الاولى متأثر بالاسلام وتعاليمه ، وللشعور الديني المكان الأول في تأثر الجماعات الدينية وانفعالاتها ، فما لم يستخدم هـذا الشعور لا يرجى ان يحدث في الجماعة التعصب الذي يحمل الانسان يرى سعادته في التضحية بنفسه وبكل عزيز فداء للمقصد الذي يوجه اليه .

فالحباب ان تولى الدفاع عن سعد وقومه نصرة لهم فهو الذي افسد

عليهم امرهم اكثر من اي شخص آخر من حيث يظن الصلاح وبدلا من ان يقود المجتمعين للغرض الذي اجتمعوا لأجله قد خسرهم واعطى القيادة ــ من حيث لا يشعر ــ لغيره الذي عرف كيف تؤكل الكتف في استمالتهم واستعمال نفوذه فيهم . وكان اول ظهور هذه الخسارة قيام ابن عمه بشير بن سعد الخزرجي ، فنقض على الخزرج ما اجمعوا عليه فقال :

« يا معشر الأنصار انا والله لئن كنا اولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما اردنا إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عرضاً فان الله وليّ المنة علينا بذلك ، ألا إن محمداً من قريش وقومه احق به واولى . وايم الله لا يراني الله انازعهم هذا الأمر ابداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم ».

انظر إلى الشعور الديني كيف اخذ بأطراف كلام هذا الرجل : متأثراً بدعوة ابي بكر وصاحبه ، خارجاً على قومه بل على نفسه ، وكان بعد ذلك اول مبايع من القوم . ولا اعتقد ان ذلك كله عن نفاسة لسعد كما رماه به الحباب لما مد يده للبيعة فناداه : « يا بشير بن سعد عققت عقاق ! ما احوجك إلى ما صنعت ؟ انفست على ابن عمك الامارة ! » . فقال بشير : « لا

والله ولكن كرهت ان انازع قوماً حقاً جعله الله لهم » .

بل اعتقد انه كان صادقاً بعض الصدق او كله فيما ادعاه عن نفسه فان سير الحادثة كما وصفناه يدل دلالة واضحة على تأثر الجماعة بكلام ابي بكر وانقيادها إلى دعوته ولا سيما بعد ماصدر من الحباب ما يبعد النفوس عن دعوة قومه . نعم ! وإنما كان مبدأ ظهور ذلك التأثر في بشير بن سعد ، فيصح ان نجعله ممثلاً لشعور قومه تلك الساعة .

٩ ـ المهاجرون يربحون الموقف

إن الحقيقة . هي التي وصفناها لك . إن القوم قد تكهربوا بدعوة المهاجرين وتهيئوا لبيعة واحد منهم بالرغم من وجود التنافس بين الحزبين كما اشرنا اليه وصرح به ابو بكر في خطبته التي تقدمت في البحث « ٣ » إذ قال : « فقد جلس بين لحي اسد يقضمه المهاجري ويجرحه الانصاري »وزاد في تهيئهم هذامنافسة الأوس والخزرج وحسدهم لسعد . وطبيعي ان تنافس القريب اكثر اثرا من منافسة البعيد مهما كانت .

ولذلك نرى ابا بكر لما سمع مقالة بشير لم يتأخر عن تقرير النتيجة من هذا النقاش ، فلا بد انه علم بانقلاب الجمع تأثراً

بدعوتهم كيف وهو قد هيمن عليهم ونومهم تنويما مغناطيسياً ، فيعرف كيف سخره وقاده فقدم للبيعة احد الرجلين اللذين معه : عمر بن الخطاب وابي عبيـــدة بن الجراح ، وقال : « قد رضيت لكم احد هذين الرجلين فأيهما شئتم فبايعوا » .

وقد جرى في هذا الكلام هنا على نفس تلك الطريقة التي سلكها في خطبته المتقدمة في البحث « ٧ » من ترفعه عن مقام المعارضة ، وتجريده من نفسه حكما للحزبين يختار لهما ما هـــو الصالح باجتهاده ، فاختار لهم احد هذين الرجلين .

ولكن الجمهور كما قلنا ضعيف الراي والاختـيار ، لا يعرف ان يختار ولا يعرف ان يعين ما يختار ، ويبقى في مثل هذاالحال منتظراً إشارة من سخره ونومه التنويم المغناطيسي اولأي شخص آخر يفاجئه بارادة قوية حازمة ، فلو ان احداً من الحاضرين قام فبايـع احداً منهما عمر او ابو عبيدة لبويـع وانتهى كل شيء .ولو ان ابا بكر عين واحداً لما تأخروا عن بيعته ، ولكن هذا الترديد بين الرجلين يظهر انه كان مقصودا تمهيداً لارجاع الأمر اليه ، ولعله عن تفاهم سابق وإتفاق بين الثلاثة ليتعاقبوا هـــذا الأمر . ولذلك تمنى عمر عند الموت ان يكـــون ابا عبيدة حياً ليعهد اليه .

اما هما فقد أبيا عليه وقال عمر : « لا والله لا نتـولى الأمر عليك ابسط يدك نبايعك ! » قال هذا القول ولم يـترك فرصة تستغل للرد والحجاج ،فحقق القول بالعمل، واقدم بارادةجازمة لا تعرف التردد يتطلبها الموقف الدقيق ،فذهب ليبايع ابابكر ، ولم يمتنع ابو بكر فمد يده ولكن بشير بن سعد هـذا الذي تقدمت خطبته سابق عمر بن الخطاب اليها فوضع يده بين يديها مبايعاً ، كانما اراد بذلك ان يحرز الفضيلة في السبق او ليبرهن على اخلاصه للمهاجرين ، بل هذا من اندفاعات الجمهور المدهشة بنتيجة انفعالهم بالمؤثرات التي تطرأ عليهم .

وهو من ابلغ الشواهد على ما قلنا من تكهرب نفوس جمهور السقيفة بتلك المؤثرات التي استعملها ابو بكر بتلك الحـذاقة واللباقة ، فان لبعض الألفاظ والجمل سلطاناً لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل . الفاظ وجمل يفوه بها الخطيب خاشعاً امـام الجمهور ، فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الوجوه هيبتها وتعنو القلوب لهـا احتراماً كأن فيهاقوة إلهية او موجة سحرية، فتثير تارة في النفوس اشد الصواعق من الغضب ، وتسكنها تارة إذا جاشت فتمزق اشلاءها وتقودها إلى حيث يريـد المتكلم

راضية قانعة [1] .

ويظهر ان عمر ايضاً ادرك حقيقة الموقف وكيف قد ربحه المهاجرون فلم يبق إلا ان يصدر احدهم الحكم الفاصل في تعيين من يبايع منهم ، فأقدم على بيعة ابي بكر – كما رأيناه – غير متردد ولا متخوف ؛ ولا مستشير ، ومد يده مسرعاً . وإلا فان الامر اعظم من أن يتم بهذه السرعة والسهولة التي كانت : باقدام شخص واحد يعقد البيعة لشخص آخر الظاهر ظهور الشمس انه صاحبه المنحاز اليه في وقت هو احد ثلاثة او اربعة من الحزب المعارض لقوم في عقر دارهم معتزين بقوتهم يريدون ان يملكوا اعظم سلطان لأعظم امة ، وهو لم يأخذ رأيهم وتصديقهم على ما اراد [2] وإنما اقدم كأن الأمر لا يدور إلا بينه وبين ابي بكر كأمر ثابت لا شك فيه . وهذه مغامرة خطيرة لها ما بعدها ، ولم تكن منه إلا لأنه ادرك نضج القوم وتهيئهم لبيعة احد المهاجرين .

---

(١) راجع كتاب « روح الاجتماع » المعرب لغستاف لبون ص ١١٣ .

(٢) على انه قال بعد ذلك في خلافته : « فمن بايع اميراً من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة للذي بايعه تغرة ان يقتلا » راجع كنز العمال الجزء الثالث رقم الحديث ٢٣٢٣ .

ولذلك لم نجد معارضة من القوم ، بل الأوس ذهبت جميعها مسرعة للبيعة من غير تردد ولا تلكؤ يقدمها اسيد بن حضير بعد ان قالت ما قالت كما تقدم في البحث « ٣ » . ثم تبعهم جميع الأنصار ما عدا سعد ومن كان شديد التعصب له كابنه قيس والحباب . ولا شك ان للعدوى اثرها الفعال في الجماعات فتسري سريان النار في الهشيم ، او تيار الكهرباء في سلكه ، فقد وجدنا كيف كان هلعهم في تزاحمهم على البيعة وتسابقهم اليها ، كأنما تفوت دونها الفرصة ، فأقبلوا من كل جانب يبايعون ابا بكر ، حتى ازدحموا على سعد بن عبادة السيد المطاع في الخزرج بل الانصار كلهم ، هذا الزعيم الذي كان قبل ساعة مرشحاً للبيعة خليفة للنبي واميراً على جميع المسلمين ، وكادوا يطأونه فيقتلونه وهو مزمل وجع ، فحمل إلى داره صفر اليدين .

وهذا لطف شيء في تناقض أفعال الجمهور وعدم ثباته وتطرفه في اعماله وآرائه وشدة نزقه ، فهو لا يعرف الحلم والصبر ولا قمع النفس عن الاسترسال في نزعاتها ، ولا المحافظة على الآداب العامة المصطلح عليها ، وهو مع ذلك كثير النسيان لأحواله السابقة .

اما الحباب ـ ولا ينبغي ان ننساه ـ لما رأى اقبال الناس

على البيعة انتضى سيفه ، فحامله عمر فضرب يده ، فندر السيف فأخذ منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ولكن من المعلوم انه لم يصنع شيئاً ولم يستطع رد جماح اي شخص من قومه حتى تمت البيعة مرغماً ، وصدق فيه وفي قومه المثل المشهور « رب ساع لقاعد » . وليتني اراه في تلك الساعة كيف كان حاله فتزبد شدقاه ويتميز غيظاً ويعض على انامله وقد ملكت حواسه سورة الغضب ، وماذا كان يقول لقومه ولنفسه بعد ذلك الذي مضى منه من التهديد والوعيد ثم ذهب هباء وخار ضعفاً ؟ لا شك انه لو كان من ابناء هذه المدينة الحديثة متشبعاً بعاداتها ، لكان ـ وهو على مثل هذه الحال ـ ضحية الانتحار ليتخلص من شنارها ويستر عارها .

١٠ ـ النتيجة

نستنتج من سير الحادثة ان طريقة بيعة ابي بكر لم تكن طريقة اختيار بالمعنى الصحيح [١] ويحقق معنى أنها كانت « فلتة » وقى الله شرها على حد تعبير عمر بن الخطاب .

---

(١) فنصدق كلمة الاستاذ محمد فريد ابي حديد في مقاله « نظرة في نظام بيعة الخلفاء » المنشور في مجلة الرسالة المصرية العدد ١٠ .

وقد رأينا السرعة التي جرت بالحادث لم تبق مجالاً للمفكر ان يشحذ فكره ولا للمعارض ان يقيم حجته ، فكانت مفاجأة في مفاجأة . مع ان العاطفة العدائية عند الأوس المهيجة من ابي بكر كان لها الأثر الفعال في تقريب النتيجة ، وساعدها بل اشعل اوارها ان المجتمعين انطبعت فيهم اوصاف الجماعة الاجتماعية ، مما يذهب عنهم صحة الاختيار والحكم .

فلا بدع إذا لم يثق الباحث المفكر باختيار جماعة السقيفة ، ولا يغتر به دليلاً على صحة هذه الطريقة من البيعة في الاسلام ، وقد اشرنا في الفصل الاول الى ان عمر نفسه قال عنها : « فمن دعا إلى مثلها فهو الذي لا بيعة له ولا لمن بايعه » .

ولا غرابة ايضاً إذا لم يدافع احد عن النص على علي بن ابي طالب وقد اندفع المجتمعون بتيار جارف لا يقف في سبيله شيء ، ونحن نعرف رأي المهيمنين على الاجتماع في علي ؛ وهم يبتعدون ان يتم له شيء من ذلك افتراهم يدعون إليه في هذا المجتمع الذي اسس على الاعراض عن النص فيه وإذا قال بعد ذلك بعض الانصار اوكلهم «لا نبايع إلا علياً» كما سبق فقد قلنا ان ذلك بعد خراب البصرة ، فان هذا الجمهور اصبح لا يملك اختياره وتفكيره وشعوره بواجبه الديني لما قلناه من تكهربه بتيار تلك القوة

السحرية قوة الاجتماع التي تجعل اعماله اعمالاً لاشعورية ، على أن اساس الاجتماع ارتكز على طمع الانصار من جهة وتخوفهم من جهة اخرى « على ما شرحناه فيما تقدم » . وهذان لم يتركاهم يفكرون في واجبهم الديني فبعد ان افحموا وغلبوا اندفعوا مع الغالبين ، وتلك هي فطرة البشر .

ويشهد على ما نحسه من الضعف الديني في تلك الأحكام العاجلة والقرارات الخاطفة في اجتماع السقيفة ، انه مما تقرر في تلك النهزة امران عامان :

١ ـ ان الأنصار لا حق لهم في هذا الأمر .

٢ ـ انهم الوزراء لمن كانت له الامارة .

مع ان الاول شك فيه ابو بكر نفسه بعد ذلك إذ تمنى فيما تمنى لو سأل النبي عنه ، والثاني هذا المنصب المزعوم وزارة الخليفة لم يعط لأحد منهم لا في عهد ابي بكر ولا بعده ، بل هذا المنصب لم يحدث لأحد إلا في عهد العباسيين .

وبهذه النتيجة التي حصلنا عليها من سير حوادث السقيفة وملابساتها يسهل علينا ان نفسر بها الآية الكريمة « أفان مات او قتل انقلبتم ... » . فان الاجتماع كان ـ على كل حال ـ انقلابا على الأعقاب ، حتى لو لم نؤمن بالنص من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من

سيكون خليفة من بعده ، لأن الاجتماع كما قلنا من اصله كان افتياتاً على المسلمين ولم يكن مستنداً إلى قاعدة إسلامية أو تصريح من الرسول . وكذلك ما قرره الاجتماع لم يكن إلاقراراً خاطفاً تحكمت فيه العواطف في المبدأ والمنتهى ، وليس فيه مجال الرجوع إلى النص . وإلى هنا نستطيع ان نرجع إلى ما قلناه في التمهيد انه كيف تفسر الآيةبحوادث السقيفة وارجو من القارىء ان يرجع من جديد إلى بحث السقيفة ليأخذ بأطراف الموضوع على ضوء هذه النتيجة .

ومن نفس الحادثة نستطيع ايضاً ان نؤيد النص على الإمام علي عليه السلام ، لأن ما ورد فيهمن تلك النصوص لو لم تكنلتعيينه خليفة وكانت لمجرد الثناء وبيان فضله ولم يكن الاجتماعلاستغلال الفرصة لمخالفة النص وكان اجتماعاً طبيعياً شرعياً ـ لو لم يكن كل ذلك وجب ان يكون هذا الرجل الذي هو من النبي بمنزلة هارون من موسى في مقدمة المجتمعين وعلى رأسهم ومعه اهل بيته ولما كان ينعقد الاجتماع ولا يقرر فيه شيء من دونمشورته وموافقته . ولكن ـ كما سبق ـ كل ذلك لم يقع . بل الحادثة من مبدأها إلى منتهاها اخذت على ان تقع على غفلة منه ومن بني هاشم إلى آخر لحظة منها واهمل شأنهم وكأنهم لم يكونوا من المسلمين او لم يكونوا من الحاضرين إلا بعد ان تم كل شيء .

الفصل الرابع

علي مع الخلفاء

١ ـ الافتيات على الامام

لا يشك التأريخ ان علياً عليه السلام ـ كما قدمنا ـ لم يكن على علم من اجتماع الأنصار في سقيفتهم ، حتى بعد ذهـاب الثلاثة من حزب المهاجرين متكتمين ، وهم ابو بكر وعمر إذ ذهبا يتقاودان ـ على حد تعبير الطبري في تاريخه ـ وتبعهما ابو عبيدة . بل لم يعلم الامام بما تم في السقيفة إلا بعد خروجهم إلى المسجـــد في ضجيجهم « وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وبيده عسيب نخل وهو محتجز يحث الناس على البيعة » فبلغه تكبيرهم ، وهو مشغـول ـ لا يزال ـ في جهاز النبي . ولم يخرج اليهم إلا في اليوم الثاني .

وأول شيء يبدو دليلاً على افتيات القوم عليه بالمشورة ، وهم يشعرون بأنهم في مقام الخصومة له انهم لم يخبروه بحادث اجتماع الانصار عندمـا اسر عمر إلى ابي بكر وهو في بيت الرسول بالخبر ، وهما ايضا لم يخبرا أحداً غير ابي عبيدة الذي تبعهما وحده حيث الاجتماع السري ، مع ان مثل الامام اولى الناس بتدارك

هذا الموقف الدقيق ان كان في اجتماع الأنصار خطر على الإسلام او فتنة ، والامور جارية على ظواهرها الطبيعية بين الإمام وبين هذه الجماعة . ثم الأغرب انهم لم يدعوه للمشاورة بل حتى للبيعة قبل ان يتم كل شيء ينتظر لبيعة ابي بكر . ولا ينتهي التساؤل عما إذا كان ينبغي ان يرسلوا إليه من يخبره بالامر على الاقل !اما كانوا على احسن نية معه او ثقة بموافقته لهم ورضاه ؟

نعم ! لقد وجدناهم قد قضوا أمرهم بينهم . ودعوا الناس إلى البيعة اشتاتاً ومجتمعين ، مستشعرين الكفاح والخصومة بل الخوف امام حزب علي . ولذا انتهزوا فرصة انشغاله وانشغال اصحابه وبني هاشم بجهاز سيدهم . ويشهد لهذا قول الطبري في تأريخه : « وجاءت اسلم فبايعت فقوي بهم جانب ابي بكر وبايعه الناس » تأمل كلمة « فقوي بهم جانب ابي بكر » ،لتفهم ان هناك جانبين متخاصمين يقوى احدهما ويضعف الآخر ،وليس المراد بالجانب الآخر لأنهم قد بايعوا في السقيفة ولم يبق إلا سعد بن عبادة وابنه ، وليس له كبير اهتمام وقد اهملت بيعته حسب اشارة بعض ابناء عمه .

أما علي فقد قلنا انه جاءه الخبر عفواً لمّا سمع تكبير القوم في المسجد وهو حول النبي مشغول بجهازه . ولما بلغته حجتهم ؛

الأنصار لم يكتم نقدها ، فقال كما في نهج البلاغة : « احتجـــوا بالشجرة واضاعوا الثمرة » .

٢ ـ رأيه في بيعة السقيفة

قلنا في آخر الفصل الأول انه لماذا لم يطالب الامام صراحة بالنص عليه بالخلافة ، وهنا نقول : انه مع ذلك لم يكتم رأيه في بيعة السقيفة . فإن التأريخ لا يشك . عند من ينظر اليه نظرة فحص وتمحيص . انه كان ناقماً على ما اسرعوا اليه من بيعة ابي بكر ، وكان بعدها غضباً لحقه ، فلم يـــلاق الحادث إلا بالإستغراب والاستنكار كما يبدومن كلمته السابقة التي قرأتهـا اخيراً . ومن كلمات كثيرة منبثة في نهج البلاغة وغيره واهمها الخطبة الشقشقية . واقل ما يقال في انكاره تخلفه عن البيعة حتى ماتت فاطمة الزهراء عليها السلام .

على ان من الظلم ان نقول : ان الإمام تخـلف عن البيعة ، وهو صاحب الأمر الذي يجب ان يؤتى اليه ، وانمــا الحق ان نقول ؛ ان الناس هم الذين تخلفوا عنه .

وأول اعلان له عن رأيه كان عند خروجه في اليوم الثاني من السقيفة بعد البيعة العامة ـ كما في مروج الذهب ـ فقال لأبي

بكر : « أفسدت علينا امرنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً » .
وهذا القول صرخة في وجه الاستئثار عليه ، وتصريح بعدم الرضى بماتم ، وليس علي ممن يداجي او يخاتل ولا ممن تأخذه في الله لومة لائم . ولذلك هم كانوا يفرون من التحرش به قبل تمام البيعة خوف إعلان خصومتهم ، فنرى ابا بكر في جواب كلامه السابق يعترف له ويقول : « بلى ! ولكن خشيت الفتنة » .

ويسكت التأريخ عن ذكر جواب للامام ، أفتراه اقتنع بكلمة ابي بكر او اغضى عن جوابها او التأريخ اهمل الجواب . ولكن علياً نفسه يقول من خطبة له عن هذه الحادثة : « فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه لا يدري ما يجيبني به » .

ولئن فرض انه سكت هذه المره فانه لم يترك الدعوة إلى نفسه واستنكار حادث السقيفة ، وان بايع بعد ذلك فلم يبايع عن طيبة خاطر واطمئنان إلى الوضع ، وهو الذي يقول بالصراحة في الشقشقية : « فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى ارى تراثي نهبا » .

ثم التأريخ يحدثنا انه لم يبايع إلا بعد ان صرفت عنه وجوه الناس بموت فاطمة الزهراء . وكم تذمر وتظلم من دفعه عن حقه

مثل قوله من كلام له في النهج : « فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا » ويشير بهذا اليوم إلى عصره في خلافته .

* * *

هذا هو الصريح الواضح من رأي الامام في بيعة السقيفة وما وقع بعدها . ويكفي النظر في الشقشقية وحدها ، غير ان التأريخ قد يحاول ان يكتم هذه الصراحة ، لأنه لا ينكر على كل حال ان علياً مع الحق والحق مع علي ، فلا يمكنه ان يتهمه بالحيدة عن طريق الحق إذا اعترف بهذا الرأي منه ، وهو ـ اعني التأريخ ـ ان يصحح ما وقع يوم السقيفة الذي لا يصح من دون رضى صاحب الحق وموافقته ، فيركن إلى المداورة .

ولكن الحقيقة لا بد ان تنم عن نفسها ، فانه جاء في صحيحي البخاري ومسلم عدا كتب التأريخ والسير ما لا يخرج عن هذا القول : « ان وجوه الناس كانت اليه وفاطمة باقية فلما ماتت انصرفت وجوه الناس عنه وخرج من بيته فبايع ابا بكر وكانت مدة بقائها بعد ابيها ستة اشهر » .

وجاء ما هو اصرح من كل ذلك في جوابه لكتاب لمعاوية ،

إذ يتهمه معاوية بالبغي على الخلفاء والابطـــاء عنهم وكراهية امرهم ، فيقول الامام منكراً لبعض التهم ومعترفـاً بالبعض الآخر : « فأما البغي فمعاذ الله ان يكون . واما الابطاء والكراهية لأمرهم فلست اعتذر إلى الناس في ذلك »[1] .

٣ ـ الموقف الدقيق

يظهر للمتتبع ان الامام كان يرى ـ عطفاً على رأيه السابق ـ وجوب مناهضة القوم حتى يأخذ حقه منهم . ويستشعر ذلك من سيرته معهم ومن كثير من اقواله التي منها قوله في الشقشقية عن حربه لأهل الجمل ومعاوية : « اما والذي فلق الحبة وبرء النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما اخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظـالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس اولها » .

فانظر إلى موقع كلمته : « لسقيت آخرها بكأس اولها » ، فانه يريد أن يقول : ان زهدي بالدنيا يدعو إلى ان اترك حقي في المرة الأخيرة كما تركته في المرة الاولى ، ولكن الفرق كبير

---

(١) راجع شرح النهج « ٣ : ٤٠٩ » .

بين الحالين: ففي الاولى لم تقم علي الحجة في القتال لفقدان الناصر دون هذه المرة ، فلا يسعني ان اعرض عنها هـذه المرة واسقيها بالكأس الذي سقيت به اولها يوم طويت عنها كشحاً وصبرت على القذى .

واصرح من ذلك ما كان يقوله : « لو وجدت اربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم » وهذا ما عده معاوية من ذنوبـه ، وذلك فيما كتب اليه من قوله : « فمهما نسيت فـلا انسى قولك لأبي سفيان لما حركك وهيجك لو وجدت اربعـين ذوي عزم منهم لناهضت القوم ، فما يوم المسلمين منك بواحد » ، ولم ينكر أمير المؤمنين عليه السلام هذا القول في جوابه على هذا الكتاب .

وفي التأريخ مقتطفات تؤيد ذلك ، كما في تأريخ اليعقوبي : إن اصحابه الذين كانوا يجتمعون اليه طالبوه بمناهضة القـوم ونعهدوا بالنصرة ، وكأنهم ظنوا ان قد بلغوا العدد المطـلوب « ٤٠ ذوي عزم » فقال لهم : اغدوا على هذا محلقي الرؤس ، وهو إنما يريد أن يريهم انهم لم يبلغوا المنزلة التي تقام بها الحجة ، فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر .

واذا كان هذا رأيه في المناهضة للقـوم يبلغ ـ يا سبحان الله ـ هذه الشدة والصرامة فماذا تراه صانعاً ؟ لنتركـه الآن

يحدثنا هو عن نفسه وموقفه الدقيق ، إذ يقول من الشقشقية : « وطفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه » . ثم يبين لنا كيف ان يده جذاء من خطبة ثانية « فنظرت فاذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضنت بهم على الموت » .

فهو إذن بين امرين لا ثالث لهما : اما المغامرة بمن عنده من أهل بيته ، واما الرضوخ للأمر الواقع ، اما الحالة الاولى ففيها خطر على الاسلام لا يتدارك فانه إذا قتل هو وآل بيته ارتفع الثقل الثاني من الارض « عترة الرسول » وافترق عن عديله القرآن الكريم وهناك الضلالة التي لا هداية معها ، وقد قال النبي : « لا تضلوا ما ان تمسكتم بهما ابداً » او « لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » واما الحالة الثانية فان في الصبر على هضم حقوقه اضاعة لوصية النبي ، وتعطيل لنصبه اياه اماماً وخليفة من بعده

فأي الأمرين هو اولى بالرعاية لحفظ بيضة الاسلام ؟

وانى لنا ان نتحكم في ترجيح احد الامرين . ونعرف الامام واجبه في هذا الأمر ؟ !

وما بالنا نذهب بعيداً ، فانا نعرف ما صنع الامام. انه

استسلم للقوم وبايع كما بايع الناس بالأخير ، وقد قرر الرأي الأخير بعد ان طفق يرتئي بين ان يصول بيد جذاء او يصبر على طخية عمياء عندما قال : « فرأيت الصبر على هاتا احجى »فسدل دونها حينئذ ثوباً وطوى عنها كشحاً .

على انه لايضيع وجه الرأي عن الناظر في هذا الأمر ليعرف كيف كان الصبر احجى ، لأنه لو نهض في وجه القوم مع قلة الناصر وحسد العرب له وتراث قريش عنده ، لكان المغلوب على امره ، وعندئذ يصبح نسياً منسياً ، ولربما لا يحفظه التأريخ إلا باغياً بغى على الدين كأولئك اصحاب الردة ، فقتل « بسيف الاسلام » واضيع مع ذلك النص على خلافته . وقد رأيناه مع بقائه حياً وإنتهاء الأمر اليه بعد ذلك كيف غمط حقه واعلن سبه وبقى الشك فيه إلى يوم الناس هذا !

وقد اشار إلى ذلك في كلامه لعمه العباس وابي سفيان لما طلبا بيعته إذ قال لهما : « افلح من نهض بجناح او استسلم فأراح ... ثم قال : ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير ارضه » .

حقاً ، لا ينهض في هذا الموقف إلا من لا يبالي إلا بالحرص على الملك ومطاولة الناس مهما كانت النتائج على الدين والصالح العام

وامير المؤمنين احرص على الإسلام من ان يغرر به لأمر يقـــول عنه : « انه ماء آجن ولقمة يقص بها آكلها » . ولا يساوي عنده نعله التي لا تسوي درهماً ، إلا إذا كان يقيم حقاً او يـــدحض باطلاً . ولذلك ،ينصح الناس في كلامه الذي أشرنا اليه مع العباس وابي سفيان ؛ وهما يحثانه على قبول البيعة فيـــقول : « شقوا امواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المناضرة • وضعوا عن تيجان المفاخرة » .

وكأنه في كلامه هذا يحس منهما إذ دعواه لهذا الأمر الالفة من الخضوع لأخي تيم ، و « تيم » على حد تعبير ابي سفيان اقل حي في قريش ، فهما ينظران إلى الأمر من ناحيتـــه القبلية • والعصبية الجاهلية . اما فقهه هو فكما قال من كتاب له في جواب معاوية في خصوص هذا الأمر « وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه » وهو غير فقههما ، فان العباس مشى اليه ابو بكر وجماعة ليلاً ، لما عرفوا موقفـــه ، فأطمع في الخلافة له ولولده ، بعد نقاش انتهى بالاعراض عـــن النزاع . واما ابو سفيان فقد نقل ابن ابي الحديـد « ١ : ٣٠ » وغيره ان عمر كلم ابا بكر فقال : إن ابا سفيان قد قدم وانا لا نأمن شره ، فدفع له ما في يده فتركه . وكان ابو سفيان قدبعث

قبل وفاه النبي على الصدقات .

ثم لنفترض ثانياً انه ما كان ليقتل لوناهض القوم ولكن مع ذلك فالصبر على ترك حقه كان احجى واجدر لأن منـازعتهم كانت ـ لا شك ـ تجر إلى الفتنة وتبعث على الفرقة ، والاسلام بعد لم يتغلغل في نفوس العرب ولم يضرب جرانه في الجزيرة ، وقد إشرأبت الاعناق للانتقاض عليه .

فهو إذ وطن نفسه على ما هو امرّ من طعم العلقم كما يقول بالتنازل عن حقه ، كان يخاف ويخشى ، ولكن لا على الحياة وهو هو ابن ابي طالب في شجاعته واستهانته بالحياة ، الذي كان يقول : والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ـ بـل كان خوفه على الدين من التصدع وعلى جامعتـــه من التفرق ، فسالم ابقاءاً لكلمة الاسلام وإتقاء للخلاف والشقاق في صفوف المسلمين فيرتدوا جميعاً على اعقابهم ، والمفروض ليس عنده القوة الكافية لاظهار كلمة الحق واقامة السلطان .

وهو يشير إلى هذا الخوف فيما يقول في هذا الصدد من خطبته في النهج : « ما شككت في الحق مذ رأيته . لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه . اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال . اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل من وثق بماء لم يظمأ » فهو

في هذه الكلمة يتأ. ى بموسى عليه السلام إذ رموه بالخيفة ولكن فرقاً بين الخوف على الحياة والخوف من غلبة الباطل ، وهذا أفضل تفسير لقوله تعالى : « فأوجس في نفسه خيفة » وفيه تبرئة لنبي الله من الوهن والشك وما ارق معنى كلمة «من وثق بماء لم يظمأ» بعد تقديم قوله « ما شككت في الحق مذ رأيته » وقد رأى الحق وهو ابن عشر سنين !

ويوضح لنا ذلك جوابه المشهور لأبي سفيان لما جاءه مستفزاً على ابي بكر وهو يقول: « فوالله لئن شئت لأملؤها خيلاً ورجلاً وانت تعرف ما قال الإمام ، انه قال : « انك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك» ما اعظم هذه الصرامة والصراحة منه لمن يريد ان يبذل نفسه وقومه في ظاهر الحال ناصراً ومعيناً على خصومه وهو يشكو فقد الناصر. نعم ان الدين الذي بذل له مهجته كان عنده فوق جميع الاعتبارات ، وان استهان به غيره ، وقد رأينا ابا سفيان كيف اسرع في الرجوع عن وعده ووعيده لما تركوا له ما في يده . وأمير المؤمنين قد صرح بغرضه هذا بعد ذلك في جوابه الذي اشرنا اليه عن كتاب معاوية كما في النهج والعقد الفريد إذ قال عن إبائه على ابي سفيان: «حتى كنت انا الذي ابيت

لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الاسلام » .

٤ ـ سلوكه مع الخلفاء

اما وقد تركنا الامام يغضي عن حقه ويقرر بالأخير خطة الصبر على ما فيها من قذى وشجى فماذا تراه يتخذ من خطة في سياسته وسلوكه مع الخلفاء : أيستسلم فيسرع إلى بيعتهم كسائر الناس ويعمل لهم كما يعمل باقي المسلمين ام يسلك بقدر ما تسمح به الضرورة وتقتضيه المصلحة للدين ؟

قد ابى بعض المؤرخين من القدماء والمحدثين إلا ان يصور الامام مسالماً إلى ابعد حدود المسالمة ، فيسرع إلى البيعة عن طيبة خاطر ورضى بمن نصب لها ، ولكن البحث الصحيح يأبى علينا ان نسلم بهذا التسرع في النقل او الحكم : فقد ثبت تاريخاً ان علياً لم يبايع ابا بكر إلا بعد موت فاطمة بضعة الرسول ، وفي تقدير ابن الأثير في تاريخه والبخاري ومسلم في صحيحهما وغيرهم انه ستة اشهر ، وفي كل هذه المدة هو جليس بيته لم يشترك في جماعة ولا جمعة ولا امر ولا نهي ولم يسمع له صوت في حروب الردة وغيرها. واكثر منذلك كان يطرق ابواب الأنصار واهل السوابق ليلاً حاملاً معه فاطمة والحسنين يدعوهم إلىنفسه

ويذكرهم عهد رسول الله ﷺ ، وهذا ما جعله معاوية من ذنوبه في كتابه السابق الذكر ، ثم انه كان يقرعهم بالحجة وينير لهم طريق الحجة ذلك قوله المتقدم « فلما قرعته بالحجة » .

وهل يظن الظان انه كان يحاول في هذا العمل ان يتحولوا في البيعة وان يتركوا ما ابرموه وهو الذي اسدل دونها ثوباً وطوى عنها كشحاً ورأى الصبر على ذلك احجى وهو الذي يدعوه العباس وابو سفيان إلى البيعة فيأبى ! ان هذا الاباء وذاك الصبر لا يجتمعان مع تلكم المحاولة والدعوة إلى نفسه ما لم يكن يرمي الامام من وراء ذلك إلى غرض اسمى مما يظن ، انه كان يقيم الحجة في عمله على اولئك الناس ويفهمهم خطأهم فيما ارتكبوا وتنكبهم عن الحق فيما اسرعوا وإلى ذلك يشير فيما قال : « اللهم أنت تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الطعام ولكن لنرد المعالم في دينك ونظهر الصلاح في بلادك » .

ويؤخذ من طيات التأريخ انه لم تأخذه هوادة في الدعاية والدعوة إلى مبدئه إظهاراً لحقه واقامة للحجة على سواه ، فلا ينكر التأريخ اجتماع اصحابه عنده طيلة ايام انعزاله ، فيعتبره الطرف الآخر كمؤامرة يحاول ابطالها خشية توسعها ، فيرسل من

يفرق القوم المجتمعين فيجتمعون. ولا ينكر التاريخ ايضاً تطوافه على الانصار واهل السوابق كما قدمنا . ولا ينكر عدم اشتراكه في جماعة ، وهو احرص على الشعائر الدينية والواجبات الإلهية من ان يجرأ مجترىء على اتهامه بالمسامحة فيها .

وهذه المقاطعة وما اليها إعلان صريح برأيه فيما عليه القوم ولذا نرى الخليفة ابا بكر يتذمر من موقف الامام فعرّض فيه من خطبته : « يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء كـأم طحال احب اهلها اليها البغي إلا اني لو اشا ان اقول لقلت ولو قلت لبحت . اني ساكت ما تُركت » ، وفي هذا تخوف مما يظن انه سيقع وتهديد باذاعة امر مكتوم. ما ادري - ولاأظن احد يدري اليوم - اي شيء هذاالامر الذي يهدد الخليفةبافشائه والظنون تذهب ولا تقف على شيء معين ؟

وزبدة المخض : انا نفهم من كل ذلك ان خطة الامـام في حياة فاطمة كانت المقاطعة والدعوة إلى مبدئه وان يقعدحجزة الضنين - على تعبير فاطمة نفسها - معتزاً بوجودها . وقـد جاهدت معه في هذا المضمار جهاداً له الأثر فيما بعد في تركيز مقام الامام في ذهنية المجتمع الاسلامي . ولا ننسى خطبتهـا البليغة التي يرن صداها إلى اليوم .

ولذا نراه بعد وفاتها يبدل خطته ، فيبايع ، ويبايع معه اهل بيته واصحابه ، ويدخل فيما يدخل فيه القوم . ولكن إلى حد محدود بقدر ما تحكم به الضرورة الدينية للاحتفاظ بالجامعة الإسلامية .

لنسمعه يحدثنا هو عن تبديل خطته في كتابه إلى أهل مصر : «فأمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلى محق دين محمد ﷺ ، فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلماً او هدماً تكون المصيبة به عليَّ اعظم من فوت ولايتكم ... »

ولم تكن نصرته للاسلام واهله إلا بسكوته عن حقه ومتابعته للقوم ونصيحته لهم في مواقع النصح ، وإلا فلم يشترك معهم في طعنة رمح ولا ضربة سيف في جميع المواقف إلى يوم بويع بالخلافة .

وماذا يظن الظان في من جاهد وجالد في سبيل الاسلام عشرين عاماً وفي كل هذه المدة كان سيفه يقطر من دماء المشركين ، ولم تثر حرب إلا وهو ابن بجدتها ، وحامل لواءها ، ومقطر ابطالها والمقذوف في لهواتها ؟ ماذا يظن الظان فيه عندما يجلس حلْس البيت عن هذا الدين الذي قام بسيفه ، وقد تألبت العرب

عليه وأشرأبت اعناق النفاق ؟ والجهاد فرض من فروض الاسلام اكان ذلك زهداً في الجهاد وتواكلا عن الواجب ، أم مـــاذا ؟ اهناك غير ما نقول من رأيه في المقاطعة إلا ما تدعو اليها ضرورة المحافظة على الجامعة .

وقد يقول القائل : ان الخلفاء هم الذين يدعوه إلى الدخـول معهم في الحروب والاشتراك في الحكم لمصلحة يرونها ، وما كان يجب عليه ان يقدم نفسه متبرعاً ، كالم يدع إلى ذلك جميع الهاشميين ولم يسمع ان هاشمياً اشترك قائداً في حرب او حكم في عهـــد الخلفاء الثلاثة . ويشهد لذلـــك المحاورة [1] بين الخليفة عمر بن الخطاب وابن عباس حينما يدعوه إلى العمل في حمص ، فيقول لابن عباس : «وفي نفسي شيء لم اره منك وأعياني ذلك » ثم يصرح بذلك الشيء : « اني خشيت ان يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فنقول : هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم اني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم » .

فيقول ابن عباس : فلم نراه فعل ذلك ؟

فقال عمر : والله ما ادري اضن بكم عن العمل ، فأهل ذلك

---

(١) راجع مروج الذهب « ١ : ٤٢٧ » .

أنتم ، أم اخشى ان تبايعوا بمنزلتكم منه ، فيقع العقاب ولا بد من عتاب .

وعندئذ يمتنع ابن عباس عن قبول العمل ويقول : ان اعمل لك وفي نفسك مافيها لم ابرح قذى في عينيك .

أليست هذه المحاورة شاهدة على ان الخلفاء هم الذين كانوا يمتنعون عن استعمال بني هاشم خوف ان يستغلوا مناصبهم للدعوة إلى أنفسهم ؟

وللمجيب ان يجيب ، فيقول : إن امتناع الخلفاء عن استعمال علي وبني هاشم ـ ان صح ـ فهو دليل آخر على سيرة الامام معهم ، واستعماله خطة يخشون معها ان يأخذوقومه ناصية الأمر ان تولوا عملا من الأعمال . على انا لا نعدم شاهداً على ان علياً هو الذي كان يمتنع عن قبول اعمالهم ، فلنستمع إلى الحديث الذي جرى بين الخليفتين عمر وعثمان

يشير عثمان على عمر : « ابعث رجلاً ـ أي لحرب فارس ـ له تجربة بالحرب ومضر بها » .

عمر : من هو ؟

عثمان : علي بن ابي طالب ؟

عمر : فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعاً اليه ؟

« فيخرج عثمان ، ويلقى علياً ، فيـذاكره فيأبى علي ذلك ويكرهه » .

ـ تأمل استفهام عمر وشكه في قبول علي ، ثم امتناع عـلي وكراهيته للأمر ! وما نستنتج من ذلك ؟

من هذا وامثاله نعرف ماذا كان علي عليه السلام يتبع في سيرته مع القوم ، وما كان يجري عليه في معاملته معهم ، حتى كان يخفت صوته في جميع الحروب والمواقف ، وكأنه ليس من المسلمين او ليس موجوداً بينهم وهو منهم في الرعيل الأول ، اللهم إلا صوته إذا استشير ونبراس علمه إذا استفتي ، حتى اشتهر عن عمر كلمته « لولا علي لهلك عمر » أو « لا كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن » .

وتتبع استشارته واحكامه في كثير من الوقائع يخرج بنا إلى موضوع آخر يحتاج إلى كتاب آخر .

إنتهى

محتويات كتاب السقيفة

الموضوع	الصفحة

اهم مصادر الكتاب

١ – صحيح البخاري المطبوع بمصر عام ١٣٢٠ هجرى

٢ – صحيح مسلم » » » ١٣٢٠ هجرى

وما في ص ٥٨ رجعنا فيه إلى المطبوع عام ١٣٢٤ هجر;

٣ – مسند احمد المطبوع بمصر عام ١٣١٣ هجرى

٤ – العقد الفريد » » » ١٣٥٣ هجرى

٥ – مستدرك الحاكم

٦ – الجمع بين الصحيحين

٧ – كنز العمال

٨ – تاريخ الطبري

٩ – تاريخ ابن الأثير

١٠ – تاريخ الخميس

١١ – تاريخ اليعقوبي

١٢ – السياسة والامامة لابن قتيبة

١٣ – تاريخ الخلفاء للسيوطي

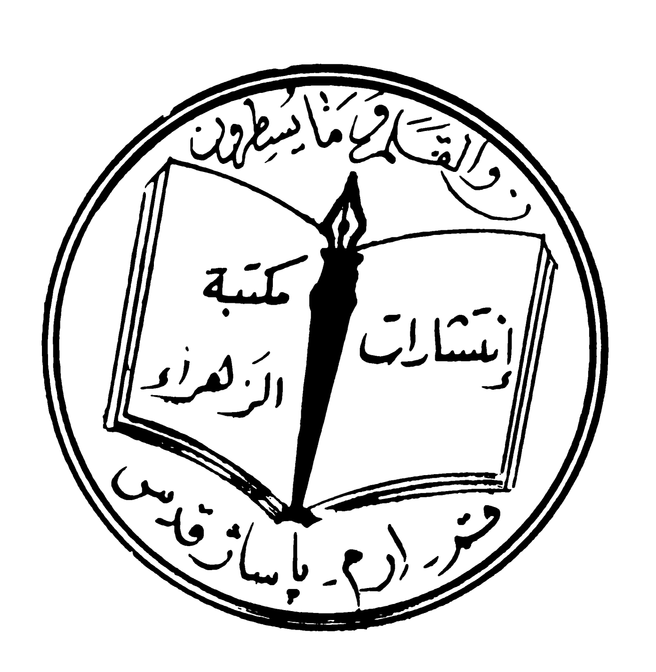
١٤ – تاريخ ابن خلدون

١٥ – مروج الذهب

١٦ – السيرة الحلبية

١٧ – سيرة ابن هشام
١٨ – سيرة دحلان
١٩ – طبقات ابن سعد
٢٠ – الاصابة
٢١ – الاستيعاب
٢٢ – اسد الغابة
٢٣ – التهذيب لابن عساكر
٢٤ – ميزان الاعتدال
٢٥ – نهج البلاغة
٢٦ – شرح النهج لابن ابي الحديد
٢٧ – منهاج السنة لابن تيمية
٢٨ – الصواعق المحرقة له
٢٩ – مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري
٣٠ – الملل والنحل للشهرستاني
٣١ – الفصل في الملل والنحل لابن حزم
٣٢ – البيان والتبيين للجاحظ
٣٣ – معجم البلدان
٣٤ – لسان العرب
٣٥ – حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]


ن والقلم وما يسطرون
مكتبة
الزهراء
انتشارات

انتشارات مکتبه الزهراء

١ـ بحث حول الولایه ـ الشهید الصدر

٢ـ تاریخ الغیبه الکبری ـ السید محمد الصدر

٣ـ السقیفه ـ الشیخ محمد رضا مظافر

٤ ـ محاکمه نویسندگان عصر پهلوی ـ مظفری میانجی